الحب في وضح النهار



زهير البيومي

الحبُّ في وضحِ النّهار

زهير البيّومي

- ١ -

وقفت لبنى في ركن شارع عبد المنعم أحد أكبر شوارع السنبلاوين تنصت في سعادة لهمسات الحب التي يبثها اياها رفعت صادق وهو جار لهم تبادله الحب منذ نعومة أظفارهما، ولبنى تثق بصدق كل كلمة يقولها رفعت خطيبها المنتظر، فكما أن هناك تفاهماً بينهما هناك أيضا تفاهم تام حول مشروع خطوبتهما بين أمها وأمه على أن يكون ذلك فور تخرجه من كلية التجارة التي يدرس بها منذ ثلاث سنوات. ولكن أمها اشترطت أن يظل الأمر طي الكتمان حتى يحين موعد اعلان الخطبة رسميا في حفل يليق بالمناسبة، ولكن لا شيء يبقى سرا خاصة على من يجدّ في اثرها ويكثر من مغازلتها ولا يلقى الا الصد والاعراض بلا سبب من وجهة نظره، فحسن المغربي الذي يعمل تباعا على

احدى سيارات النقل بعد أن فشل في أن يحصل على رخصة سائق بسبب الضعف الشديد في أبصار عينيه، وحسن المغربي التباع لا يرى أن رفعت صادق الطالب الجامعي يفوقه في شيء بل على العكس يرى نفسه متفوقا عليه فهو يعمل ويكسب وأما الآخر فمجرد تلميذ يصرف عليه أهله فلا يستطيع أن يفتح بيتا.

وعن التعليم يقول: « كنت أستطيع أن أتعلم وأصير طبيبا لولا ضعف أبصاري الذي عاقني عن اتمام شهادة الثانوية العامة، ومع ذلك فالحياة مدرسة الجدعان. لكن حسن المغربي حين علم بتفضيل لبنى لرفعت صادق عليه لم يستطع أن يخفي غيظه وكثيرا ما تحرش برفعت وحذّره بشدة من منافسته في حب لبنى او الالتقاء بها، لكن رفعت لم يأبه وقال له مرة: « لو كانت تريدك لفضلتك أنت ولكنها فضلتني أنا وهذا شأنها هي وحقها أن تختار »، وأغاظ رده حسن المغربي فانصرف وهو يتوعده بالويل اذا لم يخل الطريق له في قلب لبنى.

ومضت الأيام وكلا المتنافسين على عناده، حتى كان هذا اليوم في شارع عبد المنعم وبينما لبنى تستمع لهمسات الحب يبثها اياها رفعت واذا بسيارة نقل تمر بجوارهما وهما يضحكان في سعادة على نكتة قالها رفعت، فقفز حسن من

فوق السيارة وهجم على رفعت ولبنى قائلا :

ـ تضحكان علي وأنا ظفري برقبتكما .

وتسارع لبنى قائلة : لا والله نحن نضحك على نكتة قالها رفعت .

ويمسك حسن المغربي بذراع لبنى قائلا : ـ على من تنكتان يا أولاد الـ .... ـ ويعترضه رفعت ممسكا بذراعيه :
ـ لا شأن لك بنا .. أترك ذراعها .

وهنا يصرخ حسن المغربي في رفعت : أتحميها ؟

ويثور رفعت قائلا : لا عشت ولا كنت ان لم أحمها .

ويلكمه حسن المغربي ويبادله رفعت اللكمات وينشب شجار ويتجمهر الكبار والصغار ويلتفت رفعت الى لبنى أثناء الاشتباك قائلا :

ـ انصرفي أنت ... لا داع للشوشرة حول اسمك .

وتنصرف لبنى في حسرة وعلى مضض ، وهي تتلفت بين الفينة والفينة مشفقة على حبيبها حتى غاب عن ناظريها ، واستمر العراك سجالاً حتى بلغ الغضب بحسن مبلغه فطرح رفعت صادق أرضا وداس بقدمه على عنقه وظل يضغط عليه حتى تركه جثة هامدة. وارتفع صراخ النسوة فهرع

حسن ليقفز الى أعلى سيارة النقل المحملة بالبضائع والتي يعمل عليها واندفع السائق بالسيارة بأقصى سرعة، وبقي أهل الشارع يحاولون انقاذ رفعت ولكن بعد فوات الأوان فغطوه بأوراق الصحف وأبلغوا مركز الشرطة بأن هناك قتيلا في الشارع.

- ٢ -

وصلت قوة من الشرطة بقيادة أحد الضباط برتبة مقدم وعايـن مكـان الجريمة وانتشرت قـوة الشرطـة في المنطقـة وكذلك انتشرت مجموعة من المخبرين،كما وصلت سيارة دفن الموتى ونقلت القتيل الى المشرحة، بعد أن حضر وكيل النائب العام وعاين مكان الجريمة، وكان الناس قد انصرفوا من مكان الحادث كعادة أهل الريف خشية من الشبهة، وحين سأل وكيل النائب العام هل شاهد أحد الجريمة لم يجب أحد. ردد أحد رجال الشرطة السؤال لكن أحدا لم يرد، فأهل الريف يخشون مراكز الشرطة وما قد يجره عليهم الأمر من مساءلة أو مسئولية محتملة أو خصومة مع عائلة المغربي التي اشتهرت بالفتوّة، وأوشك وكيـل النـائـب العام ورجال الشرطة على الانصراف لولا أن سمعوا صياح

رجل عجوز من أقصى الشارع يقول:

ـ أنا شفت ما حدث يا أفندم.. نعم شفت.. أنا عجوز على شفا الموت ولا بد أن أموت مرتاح الضمير.. انه حسن المغربي هو الذي قتل الشاب الغريب عن شارعنا رأيته وهو يتعارك معه.. ولكنني عجوز لم أستطع التدخل بينهما.. حين أوشك الشاب الغريب أن يغلبه طرحه حسن أرضا وداس بقدمه على عنقه ولم يتركه الا جثة هامدة ثم قفز على سيارة نقل كانت في انتظاره.

أنصت وكيل النائب العام باهتمام، وركب سيارة النيابة وقال للرجل العجوز:

ـ اركب الى جواري لأخذ أقوالك في النيابة.

وانطلقت سيارات الشرطة والنيابة، وصرخت امرأة عجوز هي زوجة الشاهد قائلة:

ـ رحت في داهية يا محمد يا صالح يا شاهين.. ما لنا نحن والنيابة وس وج.. كما أننا لا نقوى على الوقوف في مواجهة حسن المغربي وعائلته.. يا رب اجعل العواقب سليمة... يا رب، وانهدت المرأة العجوز جالسة القرفصاء في وسط الشارع تلطم خديها وحظها وزوجها العجوز الذي كان في الشارع بمحض المصادفة فرأى الحادث الذي لم يجرؤ

أحد على الادلاء بشهادته فيه الا هو العجوز المسكين، الذي تركها وحيدة بلا حيلة الا انتظار عودته من مقر النيابة في قلق، ثم العيش بعد ذلك في قلق على حياته بسبب حسن المغربي وعائلته وجريمته التي ما كانت في الحسبان.

واذا كان المغربي هرب كأي جبان فان من تخلوا عن أداء الشهادة كلهم جبناء وهم بموقفهم هذا لا يقلون مسئولية عن جندي هرب من الميدان، ولكن بقي ذلك العجوز الباسل شاهد عيان وفارساً فاق في بسالته وشهامته كل الشبان.

- ٣ -

استغرق سؤال العجوز وأخذ أقواله في النيابة حوالي ساعتين مما سبب اعياء له فأمر وكيل النيابة باعادته الى بيته بسيارته، ولبعث الطمأنينة في نفسه هو وزوجته التي لحقت به في مبنى النيابة ـ أمر بحراسة مشددة حول بيتهما، كما أمر بالقاء القبض على المتهم حسن المغربي.

وانتشر خبر الجريمة في كل أنحاء السنبلاوين فأهلها لا تبتل في فمهم الفولة، ويحبون الكلام حبا جما مثلما يحبون عيونهم، وكانت فضيحة لبنى بجلاجل المسكينة التي حبست نفسها في حجرة بيتهم وراحت تندب حظها وتلوم نفسها «لم قابلت رفعت هذا اليوم؟ كان يمكن أن يعيش لو لم تقابله. وتساءلت ماذا لو كان رفعت رد على حسن المغربي

ردا لينا؟ وكانت أمها تقول لها مغلقة باب الحديث:

ـ يـا ابنتي.. لا تفتحـي بـاب الشيطــان.. وليكـــن في علمك اذا سألك أحد من الناس أو من الحكومة عن ذلك فانك لم تقابليه لا هو ولا حسن المغربي.... لا نريد فضائح.. من مات مات وليجـزِ الله الظـالم، انما نحن ولايـا ولا نريد فضائح.. الواحدة منا ليس لها الا عرضها.. وقاطعتها لبنى قائلة:

ـ ورفعت يذهب دمه هباءً.

ـ رفعت مات وشبع موتا.. وأنت قلت إنك مشيت قبل أن يقتله حسن فبم تشهدين بأنك كنت معه حين الشجار وانصرفت قبل واقعة القتل.. انك بذلك تجرّين على نفسك الفضيحة دون أن تغيري من الأمر شيئا، فواقعة القتل هي أهم ما في الموضوع وأنت لم تشهديها.. لنكن في حالنا... هل فهمت؟.. قومي امسحي دموعك.. قومي.. هل كان من بقية العائلة؟

وترد لبنى: كان سيصبح زوجي.

وتــرد الأم في غضـــب: كـــان سيصبـــح.. لكنـــه لم يصبح.. لم يطلع عليه الصباح.. كفي عن ذلك الهراء ولا داعي لقلة العقل يا ابنتي.. يا حبيبتي طول عمرك عاقلة

كاملة.. لا تجرّي على نفسك وعلينا المصائب ولا تفتحي علينا باب الحكومة وس وج.

وربتت الأم على ظهر لبنى وقبلت جبينها وقالت:

- انهضي يا ابنتي واغسلي وجهك ونامي قليلا.. وأنا سأذهب لتعزية أم رفعت.

قالت لبنى: سأجيء معك يا أمي.

هتفت أمها: لا يا لبنى البنات الصغيرات لا شأن لهن بالعزاء.. البنات يجلسن مكنونات في دورهن، وأمه لو رأتك ستنفجر في البكاء والعويل، ولا تفتحي على نفسك الأبواب نحن في غنى عن كل ما يمكن أن يحدث اذا جئت معي.

واقتنعت لبنى وغسلت وجهها وقبعت في البيت جالسة ساهمة شاردة لا تكاد تصدق شيئا مما حدث أو كان، ومن يصدق أن حبيب عمرها الذي كان يبادلها الكلام والضحكات منذ هنيهة صار في خبر كان وأنه لم يعد له وجود الآن.. عادت تبكي وتستدعي في نفسها معاني كامنة وطاقات الايمان التي يجب أن يعمر بها قلب الانسان في كل زمان. راحت تردد الآيات التي تحفظها من القرآن حتى استراحت ونامت.

- ٤ -

عاد حسن المغربي في الخفاء الى بيته واستطلع تفاصيل ما قد كان ورتب معهم ما يقال وكذلك فعل مع سائق السيارة الذي يعمل تباعا معه وهو أيضا أحد أصدقاء أسرته ثم غير ملابسه المتسخة وتوجه الى مبنى مركز الشرطة في تظاهر بالهلع بخصوص سؤال الشرطة عنه ومتظاهرا بالبراءة، قدم نفسه لأمين الشرطة:

ـ أنا حسن المغربي.. تسألون عني.. خير ما بك؟

وانتفض الأمين قائلا:

ـ أنت حسن المغربي؟

ـ نعم أنا.

صرخ الأمين في الجنود من حوله:

- اقبضوا عليه.

- لم يا بك؟.. أنا جئت من تلقاء نفسي أستعلم عما في الأمر.

- لا يا شيخ.. كأنك لا تعرف.

- أنا لا أعرف غير أن الشرطة تسأل عني ولأني رجل شريف لم أخف.. جئت أسأل ربما تريدون مني خدمة.

- خذوه.. احبسوه حتى تستدعيه النيابة لسؤاله.

- كما تريد، ولكن اثبت في محضر القبض أني حضرت بنفسي الى مركز الشرطة للاستعلام عن سبب السؤال عني.. أنا رجل شريف.. والشريف لا يهمه شيء ما دام شريفا.

- سنكتب كل ما تريد قوله.. هذا حقك.

رد حسن المغربي في تبجح:

- نعم حقي.. والحق لا يعلو عليه شيء.

وفتح محضر وأثبت فيه كل ما رغب حسن المغربي في قوله من أنه حضر من تلقاء نفسه وسأله الضابط ثم وكيل النيابة:

- أين كنت بين الساعة الحادية عشرة صباحا والواحدة ظهرا؟

- كنت في بلدة شبرا سندي.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- كنت أعتل نقلة بضائع هناك أنزلها من على سيارة النقل التي أعمل عليها.

- ما اسم سائق السيارة التي تعمل عليها تباعا؟

- الأسطى حنفي مدكور.

- هل يشهد بذلك؟

- ربنا يشهد بذلك.

- أقول هل يشهد السائق حنفي مدكور بأنك كنت معه؟

- طبعا يا بك.. وبعد أن أنزلت البضاعة اشترينا فول أخضر وأكلناه معا.

- ما رقم السيارة التي تعمل عليها؟

- ٤٠٧١١ نقل دقهليه.

- هل رآك أحد آخر هناك؟

ـ لا أعرف يا بك.. المارة في كل بلد كثيرون.. لكن أنا غريب في شبرا سندي.

ـ هل تحب أن تضيف شيئا؟

ـ أقول إنني حضرت من تلقاء نفسي وأنا لا زلت بملابس العمل.

ـ لقد أثبتنا ذلك في أول المحضر... هل لك عداءات مع أحد؟

ـ أولاد الحرام كثيرون يا بك.

ـ ألم تتواجد في شارع عبد المنعم بالسنبلاوين بين الحادية عشرة صباحا والواحدة ظهرا؟

ضحك في افتعال وقال:

ـ كيف.. وأنا كنت في شبرا سندي في ذلك الوقت.. لعله خيالي أو عفريتي.

ـ رد على قدر السؤال.

ـ لا يا بك لم أكن هناك.

ـ هناك شهود يقولون إنك كنت في السنبلاوين وقت وقوع الحادث ماذا تقول؟

ـ كاذبون يا بك.

ـ هل سبق لك معرفة القتيل رفعت صادق؟

ـ رحمه الله كان زميلا لي على أيام الدراسة الابتدائية والاعدادية وحتى تركته في الثانوية، كانت أخلاقه حلوة.. الموت لا يأخذ الا الحلوين.. وبعد أن تركت الدراسة بسبب ضعف ابصاري فترت العلاقة بيننا واقتصرت على التحية كلما مررنا ببعضنا في الطريق، كانت أيام يا بك وذكريات جميلة، أيام الدراسة كان رحمه الله مجتهداً وكان يسلفني كراساته لأنقل الدروس منها على مهل لأن بصري كان ضعيفا ولم أكن أرى من على السبورة.

ـ هل لديك أقوال أخرى؟

ـ لا يا بك.

ـ أنت متهم بقتل الطالب الجامعي رفعت صادق فما قولك؟

ـ لم يحدث يا بك.. ولماذا أقتله؟

ـ هذا ما نبحثه ونتحرى عنه.. ولكن ما قولك في أن هناك شاهدا على ما حدث؟

ـ كاذب وأنا مستعد لمواجهته والأسطى حنفي مدكور

يشهد أني كنت معه في شبرا سندي.

- خذوه الى الزنزانة.

ثم توجه بحديثه لسكرتير النيابة قائلا:

- وأنكر المتهم تهمة القتل الموجهة اليه وصدر قرار النيابة بحبسه أربعة أيام احتياطيا على ذمة التحقيق واعلان شاهد النفي السائق حنفي مدكور للحضور أمام النيابة لمواجهته ومواجهة المتهم بشاهد الاثبات محمد صالح شاهين.

وسيق حسن المغربي الى السجن.

- ٥ -

دلت تحريات الشرطة على أن لبنى طالبة الحقوق كانت واقفة مع القتيل رفعت صادق عندما نزل حسن المغربي من فوق صندوق سيارة النقل واشتبك معه، فقامت النيابة باستدعائها وسؤالها بعد حلف اليمين، ورغم أن لبنى فتاة مؤمنة بالله الا أن ضغط أمها عليها وتحذيرها من عواقب الادلاء بالحقيقة من سوء سمعة ومخاطرة بالخصومة مع عائلة المغربي وكلها من الأشرار، كل ذلك جعلها تنكر أن هناك علاقة حب تربطها به وقالت إنه مجرد جار طيب لهم ونفت بشدة - وهي صادقة - أن تكون قد رأت حسن المغربي وهو يقتل رفعت صادق وكانت صادقة في ذلك اذ أن حادثة القتل جرت بعد أن أشار عليها المرحوم رفعت بالانصراف بفترة.

قالت كل ذلك ولكنها كانت واثقة من صحة أقوال شاهد الاثبات العجوز وأضمرت في نفسها أنها وان كانت قد برأت المغربي بشهادتها بأنها لم تره يقتل الا أنها عقدت العزم على أن تبذل قصارى ما في وسعها للانتقام لرفعت وتعود فتستغفر الله في قرارة نفسها قائلة: «أنت المنتقم يا ربي فانتقم لرفعت ولي، فقد دمر القاتل مستقبلي الذي كنت أرجوه بقتله لرفعت وتربص سوء السمعة بي، فاثأر لي وله». وتلوذ بصمت حيال مشاعرها الداخلية وكلام النـاس الكثير والمسرف في الخيال الظالم لها ولرفعت الذي كان حلم غدها ومناط آمالها، وتطفر الدموع من مآقيها وهي تسمع صوت القارئ يأتي من المذياع مردداً كلام الله ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها**﴾.

وتنتهي من الادلاء بأقوالها وتنصرف عائدة الى بيتها وهي تسمع الهمز واللمز من الناس «مسكينة.. تركها حامل في الشهر الثاني»، وآخر يقول: «أنا مستعد للزواج بها بشرط أن تدفع مهرا لي فأهلها من الأثرياء»، ويرد آخر: «أنا لا أتزوجها حتى لو دفعت مليونا من الجنيهات فمن ذا الذي يأمنها على اسمه وهي ليست أمينة على نفسها»، وتنهمر الدموع ويبدو المستقبل أمامها مظلما بل فظيعا خاصة

بعد ما سمعته بأذنيها وسبق أن حذرتها منه أمها.

لكنها تمضي في صمت مطرقة ومسرعة الى بيتها وتدخل حجرتها وتغلق على نفسها وتنخرط في البكاء المر من جديد، ومنذ ذلك الحين لم تعد تجد لها ملاذا الا في الصلاة والعبادة ودروس المسجد الى جانب دراستها في كلية الحقوق التي أمدتها بعلم غزير في أمور الدين والشريعة، ولكن لم يغب عن بالها أبدا تتبع تطور قضية مقتل رفعت صادق والمتهم حسن المغربي الذي كان بقتله لرفعت سببا في سوء سمعتها واعراض الشباب عن مجرد التفكير في الزواج بها مرددين كلام الناس وقائلين «لا دخان بغير نار» وناصحين للآخرين بالنأي عن مواطن الشبهات. فيا له من ظلم بين.. هكذا وفي لمح البصر صارت من مواطن الشبهات بعد أن كانت درة بنات المركز وأجهنّ أدبا وأكثرهن علما وتفوقا وأصالة وأطهرهن منبتا، وتتساءل المسكينة «ما للناس لا يتقون الله ويقولون قولا سديدا، لم لا يقولون خيرا أو يصمتوا» ظلت تسأل لم؟ لم؟.. حتى أعياها السؤال فتنهدت وهي تهجع الى النوم تنشد الراحة مرددة «حسبي الله ونعم الوكيل».

- ٦ -

تشبث الشاهد العجوز بشهادته رغم تهديدات عائلة حسن المغربي له ولزوجته العجوز بل ولأولاده وأحفاده لكنه لم يرجع عن شهادته وقال:

- أنا لا أخاف الا الله وهذه الشهادة سأسأل عنها يوم القيامة.

اطمأنت النيابة لشهادة العجوز وأحالـت حسـن المغـربي لمحكمة الجنايات بالمنصورة مع استمرار حبسه، وأسندت عائلة حسن المغربي القضية الى أكبر محامٍ في المنصورة «محمد الدياسطي» الذي يضاهي في براعته «الهلباوي» في زمـانـه، وعكف المحامي على دراسة القضية ومواطن الضعف في شهادة الشاهد الوحيد وكذا المواطن التي يمكن الطعن على

أساسها، ولماذا لا يولي القضية جل اهتمامه وهذه مهنته وواجبه، وبالمثل أولاه أهل المتهم عظيم تقديرهم فدفعوا له أولا مبلغا كبيرا مقابل الاطلاع على القضية قبل قبولها، ثم دفعوا له مبلغا أكبر مقابل قبوله الدفاع عن ابنهم ووعدوه بمبلغ كبير في حالة البراءة عدا احتفال علني كبير يليق به كأستاذ في المحاماة ويترك ذلك لعظيم تقديرهم له.

كل ذلك جعل المحامي الكبير يجدّ في بحث جميع جوانب القضية خاصة وقد عرف بسلطان هذه العائلة في السنبلاوين وليس بغائب عنه أن نجاحه في الحصول على البراءة لموكله في هذه القضية سيجلب له زبائن كثيرين ويضاعف من مقابل أتعابه في أي قضية، فقضية حسن المغربي صارت قضية رأي عام خاصة وأن عائلة المغربي تمارس في كل أنحاء المركز منذ زمن سطوتها وسلطانها الذي صار الناس يتمنون زواله، خاصة بعد أن صار اهدار الدم سهلا في نظرهم وهو عزيز في نظر أهل المركز لذا صاروا يكرهون الارهاب بوجه عام وارهاب هذه العائلة بوجه خاص ويتمنون زوال مجد هذه العائلة الذي انحصر في الفتوَّة والبلطجة والارهاب والسطو والاتاوات فكيف وقد انتهى عهد الفتوات؟

ولكن جاء من هم أسوأ من الفتوات، فحقا كان

الفتوات فيما مضى يبسطون سلطانهم، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه ينشرون حمايتهم ويساهمون في نشر الأمن والاحساس به بين المواطنين البسطاء الذين يدفعون الاتاوات، فكل ذلك كره أهل البلد سلطان عائلة المغربي وكانوا ينظرون بأمل الى اليوم الذي يدان فيه حسن المغربي ويحكم عليه بالاعدام أو السجن المؤبد الأمر الذي سيكسر شوكة عائلته، بل ربما يكون صدور مثل هذا الحكم ايذانا بزوال سلطانهم الى الأبد.

- ٧ -

ظل حسن المغربي مقبوضا عليه في السجن، ولكن الطعام كان يتسرب اليه كل يوم من بيت أهله ساخنا بأساليب يعرفونها، فقد دربوا على الاجرام وما يلزمه من خبرات اكتسبوها على مر تاريخهم الطويل في الاجرام والبلطجة، وفي السجن تعلم حسن المغربي - رغم طبيعته التي لم تخل من لمسة تديّن تركه فيه تعليمه الابتدائي - تعلم الاجرام على أصوله على يد رفاق السجن المحنكين الذي لم يجد حيال عنفهم سوى التكشير عن أنيابه والتحلي بكَمٍّ مبالغ فيه من شراسة ليست له ولكنه عرفها في كل أهله، لذلك لان له رفاق السجن بل انطوى الجميع تحت جناحه بحكم تفوقه العضلي وصنعوا منه فتوة السجن خاصة بعد أن ذاق كل من في السجن ألوانا من كرم أهله وجودهم الذي لم يكونوا

ليشهدوا منه شيئا لولا وجود ابنهم معهم.

ولأن طبيعة حسن المغربي الانفعالية وعاطفته المشبوبة ورطته في هذه الجريمة النكراء، ولانه نشأ على التدين كان كثيرا ما يركن الى الحائط ويبكي رفعت صادق القتيل ويبكي نفسه في نفس الحين، فقد كان رغم ما دأب أهله أن يحيوا فيه من رجاء، كان يؤمن في قرارة نفسه أنه مدان وأنه لن ينجو من حبل المشنقة، لذا كان كثيرا ما يبكي بحرقة وندم على قتله رفعت، وينتحي جانبا يقرأ القرآن على روح ضحيته وعلى روحه هو التي كان يثق أنها لن تبرأ من الجرم الا بالقصاص، لذلك كان صوته وهو يقرأ القرآن يتهدج في خشوع صادق واحساس بالندم، وان وجوده لن يصير الا الى العدم، وان ذلك حال الانسان من أول الزمان فلم اقباله على الدنيا وشهواتها ولهفته؟ ولم لا يعدّ للآخرة عدتها ويحسب ليوم القيامة حسابه ويتأهب لينال على الجرم عقابه؟ لذا واظب على قراءة القرآن ولم يكن لسانه يكف عن ترديده وهو لا يغفل أبدا عن يوم الحكم القريب ولا يسأل الله سوى الرحمة لضحيته ولنفسه، وأما المغفرة فتشكل في وجدانه الحلم والعيد بل ربما الميلاد من جديد.

وظل حسن المغربي على شروده هذا حتى حين جاءوا لينقلوه من السجن الى المحكمة يوم جلسة الحكم، وبعد

مرافعة عظيمة لجأ المحامي فيها كشأنه في الجلسات السابقة الى التشكيك في صحة أقوال شاهد الاثبات وفي سلامة حواسه فقال:

ـ يقول الشاهد إنه رأى المتهم وهو يجهز على القتيل على مسافة اثني عشر متراً فليقف الشاهـد على مسـافـة اثني عشر مترا.. في آخر القاعة مثلا:

وأخرج المحامي شيئا من جيبه وقال يسأل الشاهد:

ـ هل تستطيع أن تخبرني ماذا في يدي؟

ورد الشاهد:

ـ هذا قلم.

وضجت القاعة وانبرى المحامي مرددا:

ـ وهكذا يا سيدي القاضي ترى أن الشاهد لا يستطيع أن يميز من هذه المسافة التي حددها بين القلم والنظارة فكيف له بتمييز ملامح وتفاصيل وجه انسان؟ ناهيك عن أنه ثابت من أقوال شهود آخرين أقسموا اليمين أنه كان في مكان آخر وقت وقوع الحادث.

حضرات القضاة.. حضرات المستشارين أرجو أن تضع عدالة المحكمة نصب عينيها أن روح هذا المتهم البريء أمانة

في أعناقنا جميعا وأننا نرجو تحقيق العدالة أولا وقبل كل شيء، والتي لن تكون الا بتبرئة ساحة موكلي المتهم البريء حسن المغربي.

وأرجأت المحكمة اصدار الحكم الى نهاية الجلسة، ولأن الشك يفسر دائما لصالح المتهم ولأنه ثابت وجوده بمكان آخر أثناء وقوع الحادث بشهادة الشهود ولعدم توفر الأدلة على صحة أقوال شاهد الاثبات الوحيد العجوز بسبب عدم قدرته على التمييز بين القلم والنظارة.. صدر في نهاية الجلسة الحكم ببراءة حسن المغربي والافراج عنه بينما هو ذاهل غير مصدق يبكي ويقرأ في سره القرآن بينما سارع أهله بالخروج من القاعة في نهاية اصدار الأحكام وتجمهروا حول المحامي الذي كان يتيه عجبا وخيلاء وهم يذبحون بقرة تحت رجليه خارج باب المحكمة وجمهور من عائلة المغربي والمتفرجين يهتفون للأستاذ الذي حصل على البراءة لابنهم المجرم، فرغم ندمه هم غير نادمين ولا حتى آسفين، بل عادوا في زفة الى السنبلاوين وتظاهروا أمام بيت القتيل محتفلين ببراءة ابنهم، وزوال غمهم وجالوا البلدة بالطبلة والمزمار في تيه وعجب وخيلاء وتظاهر للقوة وقد عادت اليهم سطوتهم...

فهل تعود شمسهم تطل على البلدة من جديد؟

- ٨ -

ساد مركز السنبلاوين حالة من الفوضى واختلال الأمن الذي ساد المركز في أعقاب الافراج عن حسن المغربي وما أحدثه أهله من هرج ومرج في البلد، وساد الرعب الذي سيطر على الناس وخضم من المشاعر الذي سيطر على أهل البلد تجاه الحكم الذي برأ حسن المغربي والذي له أسانيده من ضعف شهادة الشهود وعدم كفاية الأدلة، وكل ذلك بسبب احجام الكثيرين من الذين شهدوا الواقعة، وردد عابر سبيل أبله يجوب البلد ليل نهار طلبا للقمة أو المأوى:

- ستشربون من الكأس الذي شرب منه رفعت صادق.

تساءل خائف من أهل البلدة:

- هل سنموت يا شيخ حزين؟

قال الشيخ حزين:

- رفعت مات وشبع موتا.. ولكنكم ميتو الضمير ولذلك ستموتون أحياء من الرعب.

قال الخائف:

- لماذا تحكم علينا بذلك يا حزين؟

قال حزين:

- بل أنتم فعلتم ذلك بأنفسكم باحجامكم عن الشهادة.. ولن تعرفوا النوم.. لن تجدوا وسادة.

وبالفعل اختل الأمن وساد الذعر بعد أن سيطر على عائلة المغربي شعور جارف بالقوة، وبعد أن سيطر على الناس احساس شديد بالهوان وساد اليأس وصار الأمل بحجم الكشتبان حيال كل ذلك لم يجد مأمور المركز من سبيل لاستعادة الأمن واعادة ثقة الناس في قوة أجهزة الأمن وهيبتها لم يجد من سبيل سوى استصدار أمر من مكتب المشير عامر حينذاك باعتقال حسن المغربي الذي برأته المحكمة بالأمس وذلك بدعوى أنه من الأشقياء الخطرين على الأمن، وقرت عيون ضباط المركز ونامت جفونهم ولكن المثقفين رغم ثقتهم بأن عائلة المغربي عريقة في

الاجرام، وان كل أهل البلد يعرف أن حسن المغربي قتل رفعت صادق في رائعة النهار الا أن المثقفين والمتنورين لا تعجبهم الاجراءات الاستثنائية التي تبيح الاعتقال لمن برأه حكم قضائي ويرون أن ذلك أدعى ألا يعرف النوم سبيله الى عيون أهل البلد جميعا لأن الاجراءات الاستثنائية لا تقف عند حد، ووقت يجدّ الجد سيلمس الناس جميعا ذلك بأنفسهم، وبالفعل منعا للغط ورغبة في سيادة الهدوء، منعت التجمعات واغلقت المقاهي ابتداء من بعد صلاة المغرب ولزم الناس بيوتهم كما لزموا الصمت خشية الاعتقال الذي بدأ بحسن المغربي ولا يعرف أحد بمن سينتهي، النساء هن الوحيدات اللائي لا يعرفن الصمت ولا يستطيع أحد أن يقيد ألسنتهن، لذلك كن يلمزن بها لبنى بالقول وهي تسير في طرقات البلد فتقول واحدة:

- مسكينة.. مات وترك لها جنينا في أحشائها.

وتقول أخرى:

- مسكينة لم؟ نحن المسكينات.. لا نجد من يموت في حبنا.

وتتوالى الضحكات في أعقاب الغمز واللمز، وتنطوي لبنى على نفسها وتبكي في سرها حظها ومستقبلها المظلم من

بعد رفعت صادق، وتلوذ بقراءة القرآن الذي كان أبوها يوصيها به دائما، فكان في القرآن ملاذها وخلاصها وبلسم جراحها التي لم تلتئم من بعد مقتل رفعت، خاصة وأنه في مثل هذه المدن الصغيرة لا يقبل العرسان على أي فتاة لها قصة حب ذائعة الصيت مثل ياسين وبهية وعزيزة ويونس فهل صارت حكاية لبنى ورفعت من الذيوع مثل هذه الحكايات بحيث تعطل مستقبلها الذي هو الزواج؟، فالمرأة في هذا المجتمع ليس لها الا سمعتها، والسمعة ليست هدفا في حد ذاته وانما وسيلة للزواج في مجتمع وقر في وجدان أفراده أن المرأة مكانها البيت وأن الرجل مكانه الغيط أي العمل، فهل من أمل أمامها سوى أن ينسى الناس قصتها مع رفعت الذي انتهى بالقتل وهو ظلم.

ولم تتوقف القصة عن الذيوع بقتله بل ازدادت انتشارا وازداد بذلك وقع الظلم عليها بازدياد تناثر الأخبار حولها.. لبنى راحت.. لبنى جاءت.. لم يرقبون حركاتها وسكناتها؟ هي كانت تحب رفعت حبا شريفا وكانت تلقاه على مرأى من الناس وليس في الخفاء، وحسن المغربي كان غريما لرفعت في حبها دون أن تدري في البداية ثم انقض عليه في النهاية فقتله واضعا نهاية مروعة دموية لحبها، فلم لا تتوقف الألسنة عن الكلام بانتهاء قصتها مع رفعت الذي مات،

فالمستحيل أن تتحول الى حب حسن المغربي حتى بعد أن برأته المحكمة فهي لا تتصوره، وهل ممكن أن تتصوره زوجا أو ترى وجهه دون أن يذكّرها برفعت الذي كان بهي الطلعة عذب اللسان دمث الخلق خفيض الصوت، عيونه دنيا، وبموته عرفت لبنى الآخرة.. فمعه كان آخر عهدها بالحب وبموته توقف عن الخفقان القلب، فهل يعقل أن يخفق القلب من جديد ويحلم بمستقبل ويرنو للبعيد.

- ٩ -

في السنبلاوين في ذلك الوقت كان يسود تعبير « سوق البنات » أي الآتي في سن الزواج، وسوقهنَّ جميعا والحمـد لله رائجة الا لبنى كسدت سوقها، ولا يدري أحد سببا معينا لذلك، هل كسدت سوقها بسبب ما لحق بها من سوء السمعة، أم بسبب ذبولها وشحوب لونها وهزالها بعد حادثة مقتل رفعت الذي كان منية قلبها، أم بسبب نفسها العليلة بعد ما لحق بها من سوء السمعة، أم لكل هذه الأسباب مجتمعة، وأمها لم تقصر معها فهي تجدّ في البحث لها عن عريس بعد أن انصرف العرسان عنها، فهي أينما ذهبت تروج وترغب في الزواج من ابنتها حتى ولو كان ذلك في سيارة أتوبيس وهي مسافرة من بلد الى بلد، أو حفل زفاف دعيت اليه، وحتى في المآتم تستهل حديثها بقولها

نحن في مأتم دائم فابنتي منذ الحادثة المشئومة التي تعرفونها انطوت على نفسها ولم يعد أحد يراها لذا لم يعد الخطاب « يرفون » على بيتنا من أجلها كما كان العهد بهم منذ مطلع صباها، بعد أن خرطها خراط البنات وحتى كان ما كان »، ونصحها البعض باصطحابها الى حفلات الخطوبة والزفاف حتى ترد اليها الأفراح نضرتها وبهاءها، وأضاف البعض الى النصيحة نصيحة أخرى وهي أن تقرص العروس في ركبتها حتى تلحق بها في جمعتها، ونصحتها أخريات بأن تكثر من زيارة بيوت الأقارب ممن لهم أبناء من الشباب قائلين إن الأقارب أولى بها فهي من لحمهم ومن دمهم.

وعملت أم لبنى بكل هذه النصائح تباعـا ولم تُجـد مـع ابنتها واحدة منها، فالناس يهربون من سوء السمعة هروبهم من الناقة الجرباء، فسوء السمعة لا دواء له حتى بضرب الحذاء، فمن تضرب والناس جميعا يلوكون سيرتها بألسنتهم بلا هوادة أو رحمة. والأخبار كالجراثيم تتكاثر وتتناثر في كل مجتمع أو زحام وفي كل اتجاه لأن ألسنة الناس ليس لها رابط أو لجام ولا تتورع أن ترتكب في كل لحظة بالحق أو بالباطل ورجما بالغيب أي نوع من الغيبة والآثام، فأي خير ترجوه لبنى من البقاء في السنبلاوين. وعندها اقترحت عليها أمها أن يحملا عزالها ويلوذا بالفرار الى بلدة لا يعرفها

فيها أحد ، ولكن لبنى بفطنتها أدركت أن ذلك يزيد الأمر سوءا بالنسبة لها فردت على أمها وقالت :

- سيقولون إني ذهبت لأضع حملا لم أحمله خارج البلد ، كما أن من نحلم بأن يتقدم لي من أي بلد نفر اليه لا بد سيسأل عن أصلنا وفصلنا وسيلجأ للسؤال عنا في السنبلاوين ، وأهلها ليسوا بحاجة لتوصية، سيرغون ويزبدون بالباطل وبذلك يلاحقنا سوء السمعة ظلها من بلد الى بلد ، خير لنا يا أمي أن نهتم بما تبقى لنا من حياتنا .

وتتساءل أمها في حسرة :

- أية حياة ؟

- دراستي يا أمي والتجارة التي تركها أبي ، أنا أدبر أمر البيت والدراسة وأنت عليك أمر التجارة خاصة وقد شاركت المرحوم في ذلك في أيامه الأخيرة ومع نهاية العام أساعدك في عملك حتى يتم تعييني .

وترد أمها :

- لك ما تريدينه يا نور عيني .

وتمضي الأيام بلبنى بين الدراسة والعناية بالبيت والمذاكرة وقراءة القرآن في ساعات الحزن واليأس ، ولكن

كل ذلك ليس به من بأس فعما قريب ستتخرج من كلية الحقوق وتتمكن من أن تشق لها وسط غابة البشر طريقا، فاليأس كلمة لا تتردد في قاموسها كثيرا، وان ترددت ففي قراءة القرآن زوال اليأس وجلاء الحزن وذهاب الغم والتئام الجراح وبزوغ الفجر وطلوع الصباح وعودة الفرح الغائب للقلب والانشراح.

- ١٠ -

بعد أن استتب الأمن وساد الهدوء أرجاء مركز السنبلاوين لمدة ثلاثة أشهر أفرج عن حسن المغربي خشية الهمس الذي كان يسود أوساط أبناء المثقفين بالسنبلاوين والذي مفاده أن أحكام القضاء يجب أن تحترم وأن النظام يجب أن يسري من القاعدة وحتى قمة الهرم وأن الاجراءات الاستثنائية ولّى عهدها وانصرم وأن للقانون حرمة الحرم وأن حسن المغربي وان رأت السلطات فيه خطرا فقد برأه القانون فلا جرم.

لكنه بقدر فرحة المثقفين باستجابة المسئولين لفكرهم المستنير بقدر ما رأى عامة الناس في الافراج عن حسن المغربي أمراً خطيراً وخشوا أن تعود أيام سطوة عائلته

والأحداث التي كانت تجعل النوم من العين يطير، لكن حسن المغربي خرج من المعتقل منهدا وتضاعفت التجاعيد والغضون في وجهه وكأنه صارا جدا، فبدلا من عودته يوم صدور الحكم ببراءته زج به الى المعتقل، وها هو اليوم عاد من المعتقل وعلى وجهه وثيابه علامات الهطل، فقد تدلت لحيته وسار يغمغم بكلمات لا يكاد يميزها أحد، لكنه بدا وكأنه يردد سورة الاخلاص، وأحيانا يحاول أن يشرح ويوضح أنه قد تغير ولكن أحدا لا يصدقه من الناس فيجهش بالبكاء ثم يمضي وهو يحث الخطى مبتعدا، وقال الصبية ومن تابعه معهم من العامة أنه سار في اتجاه المقابر وقرأ الفاتحة على قبر ضحيته رفعت صادق وسأله العفو بعد أن بلل قبره بدموعه، ثم اتجه بعينيه الى الله بالدعاء وسمعوه يردد بصوت عال: يا رب أنت رجائي بعد أن عز الرجاء فأسألك الهداية بعد أن خيم الظلام وعز الضياء فاغفر لي يا رب ما مضى من الذنوب والآثام وأعد الى قلبي السكينة وأعد لي حب الناس والاحترام، وأعدك يا رب أن يسلم كافة الناس من لساني ويدي، وأن أعيش ما تبقى لي من العمر أكفر عن ذنبي وأن أصير قدوة حسنة بها الكل يهتدي، فاستجب لدعائي يا رب وفك وثاقي من المعصية والجرم حتى أصير حقيقة مطلق السراح وأعاهدك يا الله مهما فعل بي الناس أن أكبح في نفسي الجماح، وأن أكسب

لقمتي بالحلال وأجعل فيها نصيبا للمحتاج، وأن أقوم الليل طمعا في عفوك وصفحك ذات صباح.

وسمع صوت المؤذن يقول: «حي على الفلاح» فمضى من فوره الى مسجد قريب صلى فيه الظهر وخرج متجها الى بيت رفعت صادق يطرقه في ذلة السائل والمحتاج يطلب العفو والسماح ويبلل أعتاب البيت بدموع توبته وندمه، لكن جرحهم كان لا زال ساخنا، ووجوههم لا تزال واجمة وقلوبهم مكروهة ونفوسهم محزونة والعيون لم تجف بعد فيها الدموع لذا انهالت عليه الشتائم من أهل رفعت كالمطر، ورغبة منه في التكفير عن جرمه استسلم لسبابهم وشتائمهم بل وعصيهم حتى أن البعض من الناس تعاطف معه وحملوه الى بيته حملا بعد أن تعددت به الاصابات وهم يعجبون لتغير حاله ورأى بعض الناس أنه جن أو أصابه بله أو مس من الجان، فما من عاقل يذهب برجليه ويستسلم رغم قوته لكل هذا السباب والضرب وكأنه عبد مهان، وقال قائل: «إنه مهما كان من شأن جرمه فقد تاب وأناب وأثبت أنه انسان».

لكن أهل رفعت لا يرضون من حسن المغربي بغير القصاص بالثأر أو الاعدام بديلا، فلقد حرموا فلذة كبدهم فلماذا لا تجرب عائلة المغربي ألم الحرمان من الضنا ولماذا لا يصبح بالنسبة لهم القصاص من حسن المغربي غاية

المنى بعد أن فقدوا بموت ابنهم أكبر أسباب السعادة في دنياهم والهناء، حقا ليس لهم في استرداده رجاء، لكنهم أيضا لا يرون لحسن المغربي حقا في البقاء، فان كان قد تاب حقا فلا بد من الثأر أو القصاص، فليذهب ليعترف أمام القضاء والا فهذا كله دجل ومحض هراء.

وقال البعض إن أحدا لا يذهب للموت برجليه، وعرضت عائلة المغربي «الدية» بعد أن أبدى حسن المغربي استعداده للاعتراف أمام المحكمة، ورفضت عائلة رفعت صادق الدية وصممت على الثأر أو الاعتراف أمام القضاء والقصاص.

كل هذه الأحداث مرت على سمع لبنى وأثارت في نفسها مشاعر شتى من الكره والعطف تجاه حسن المغربي كما أعجبت بشجاعته في تحمل الاهانة والذل رغبة منه في التوبة، وأثارها أن يذهب الى باب بيتهم خاضعا ذليلا يطلب الصفح فيجاب بالسباب والعصي، وأثارها أن يعرض أهله دية فلا يستجاب لهم وتوصد الأبواب دونهم رغم أن معهم حكما قضائيا بالبراءة وسمعت أن مجلسا للصلح سيعقد في المسجد وسيذهب اليه أهل القاتل والقتيل بعد مساع حميدة كثيرة جعلت أهل القتيل في حرج وحيرة فوافقوا دفعا للحرج وسعيا للخروج من حيرتهم بعد أن سمعوا آراء حول التحكيم ألجمتهم.

- ١١ -

في التاريخ المحدد اجتمع أهل القاتل والقتيل في المسجد بشيخ المسجد وعدد من الوعاظ وأهل الخير في مركز السنبلاوين، وجلست النسوة وبينهن لبنى في مكان للنساء بالمجلس ينصتن دون تدخل من جانبهن.

وبدأ الشيخ عبد الدايم شيخ المسجد في الحديث بسؤال كلا الطرفين المتخاصمين ان كانوا يرضونه حكما فيما شجر بينهم، فردوا بالايجاب فمضى يقول في اسهاب أولا دون مقاطعة حول ما يتعلق بالثأر أو القصاص أو الدية:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم**

وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدِيَةٌ مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما﴾ صدق الله العظيم. وهذا هو الحال في قضيتنا، القاتل والقتيل كلاهما مؤمن والقتل خطأ أثناء شجار بينهم، وأرى أن الدية واجبة لاصلاح ذات البين ويبقى أن نحدد كم تكون الدية وأهل القاتل قادرون عليها ان شاء الله، ذلك اذا لم يتنازل عنها أهل القتيل وهم أهل خير، وهنا انبرى ثروت صادق شقيق القتيل رفعت صادق وقال في حماس:

بسم الله الرحمن الرحيم **﴿ومن يقتل مؤمنا عامدا معتمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾** صدق الله العظيم. ثم استمر يقول:

- من قال إن حسن المغربي قتل شقيقي رفعت خطأ؟ لقد قتله عن عمد مع سبق الاصرار والثأر واجب.

وهنا قاطعه أحد الشيوخ وقال:

- لا مجال للحديث عن عادة الثأر المذمومة هنا فقد قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع**

بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ صدق الله العظيم.

ومضى الشيخ يشرح الآية فقال:

ـ القصاص في القتل لا يقيمه الا أولو الأمر فرض عليهم النهوض بالقصاص واقامة الحدود وغير ذلك لأن الله سبحانه وتعالى خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص، فأقاموا الحاكم أو القضاء مكان أنفسهم في اقامة القصاص وغيره من الحدود، وليس القصاص بلازم انما اللازم ألا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود الى الاعتداء، فأما اذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح، واسمعوا ما حدث في عهد الخليفة عمر بن الخطاب: قتل شخص خصماً له وكان ذلك عن عمد وحكم القضاء بالاقتصاص منه، وكان القاتل غريبا في البلد وطلب الى عمر بن الخطاب أن يرى أهله كي يودعهم فسأل عمر:

ـ هل من أحد يضمنه

فضمنه ابو ذر الغفاري الى أجل وتاريخ يعود فيه، وتأخر كثيرا واعترى القلق الخليفة والضامن الغفاري، وكاد عمر أن يأمر بتنفيذ الحكم في الضامن وفجأة رأوا القاتل

عائدا يجري من بعيد يحيط به الغبار، فأمر عمر بالانتظار وفعلا عاد القاتل وسأله عمر:

ـ كان أمامك فرصة لتنجو بنفسك من القتل بتنفيذ الحكم فلم لم تفعل؟

قال الأعرابي:

ـ حتى لا يقال إن أهل الصدق جميعا قد ماتوا ولم يبق منهم أحد.

وسأل عمر الصحابي الغفاري:

ـ لم ضمنته رغم ما في ذلك من خطورة على حياتك؟

رد الغفاري قائلا:

ـ حتى لا يقال إن أهل الشهامة والمروءة قد ماتوا جميعا ولم يبق منهم أحد. وهنا انبرى كبير أقارب أهل القتيل وقال:

ـ يا أمير المؤمنين لقد عفونا عنه حتى لا يقال إن أهل العفو قد انتهوا من الدنيا.

وبعد أن ختم الشيخ روايته توجه للجالسين بقوله:

ـ وما في طاقتنا الآن هو الدية أو العفو خاصة وقد

برأه القضاء المنوط به اقامة القصاص.

وهنا ثار اهل رفعت صادق وقال واحد منهم: لقد بـرأه القضاء لأنه أنكر أمامه أنه قتل رفعت ولأن محاميه كان بارعا في حجته.

ورد شيخ المسجد قائلا:

ـ علمت أن رسول الله ﷺ قال: «انكم تختصمون الي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فانما أقطع له به قطعة من النار» أي أن رسول الله ﷺ يرى أن شرعية الحكم مربـوطـة بـالحق وليس بمنطوق الحكم خاصة اذا كان الحكم قد ترتب على كذب في أقوال المتهم أو دفاعه أو حجاجة سواء كانت كاذبة أو مزيفة، وعلى هذا يكون الحكم الذي صدر بمثابة قطعة من النار اقتطعت للجاني وهي جزاؤه في الآخرة ان شاء الله.

وهنا ثار أهل القتيل وقالوا في غضب عارم:

ـ تريد منا أن نصبر وننتظر حتى الآخرة.. لا قبل لنا بذلك.

واستمرت محاولات التوفيق أياما وأسابيع وشهورا حتى

كان يوم قال ماكر من أهل القتيل رفعت صادق للشيوخ الحاضرين معهم في المجلس:

- يزعم حسن المغربي أنه تاب وجاء يعلن ندمه وتوبته عما بدر منه من قتل لفقيدنا رفعت فان كان قد ندم كما يزعم حقا على قتله لابننا، وان كان يرى في الحكم الذي صدر ببراءته قطعة من النار اقتطعت له نتيجة أنه ألحن بحجته هو ومحاميه، واذا كان مؤمنا ينشد النجاة من النار فليعدل عن كذبه في أقواله التي برأته، وليعترف أمام المحكمة من جديد بالحقيقة التي اعترف لنا بها، ثم ليكن الأمر للقضاء بعد ذلك يرى ما يرى فيه.

وبهت الجميع واعترى أهل القاتل الذهول من حرج موقف ابنهم حسن المغربي وعادت عائلة المغربي تلوح بالقوة بعد صبر طويل خاصة وقد رأت اصرار عائلة رفعت صادق على موت ابنهم حسن.

لكن حسن المغربي حسم الموقف بعد صمت طويل طوال المجالس السابقة وقال قولته الأولى والأخيرة في هذه المجالس كلها:

- يا ناس أنا تائب الى الله وأريد النجاة من النار وسأعترف أمام القضاء كما تقولون وليفعل الله ما يريد.

وحاول أهله أن يثنوه عن عزمه بينما ساد الفرح نفوس الخصوم.

ومضى حسن المغربي من فوره الى نيابة السنبلاوين ليعترف وفي اثره لبنى التي هز كيانها موقفه العظيم، كما لم يفتها أنه قتل من أجلها ولم يفتها أنها أضيرت بالاشاعات مثلما أضير المرحوم رفعت بالقتل، كما لم يفتها أنها محامية شابة حديثة التخرج، وأن قضية رأي عام كهذه بالنسبة للبلدة ترفع من شأنها اذا ترافعت فيها، ومهما يكن من أمر حسن فهو جار لهم من أهل البلدة وزميل في مرحلة الدراسة الابتدائية المختلطة لم يفترقا الا في المرحلة الاعدادية ثم المرحلة الثانوية التي لم يكملها بسبب ضعف ابصاره الشديد الوراثي وأنه كان يمكن أن يكون شخصية متعلمة ناجحة لولا يأسه بسبب ضعف ابصاره.

وفي النيابة وقفت لبنى الى جوار حسن المغربي على غير المتوقع من أهل رفعت صادق وكان هذا الموقف نتيجة لنبل موقف حسن المغربي وصادق توبته، ولاحساسها بأنها كانت سببا فيما شجر بين القاتل والقتيل حسن ورفعت.

وأعيد فتح ملف القضية وأخذت أقوال حسن المغربي من جديد وسجلت له النيابة ندمه ورغبته في التكفير عن ذنبه،

وأن قتله لرفعت كان في شجار ثارت فيه الانفعالات وانتهت بقتل رفعت وأنه راض بالحكم الذي يصدره القضاء عليه. ودرست لبنى القضية من جميع جوانبها وبحثت العوامل التي تخفف من الحكم بحثا جيدا ودافعت بأن الحادث شجار وضرب أفضى الى موت.

وفي المحكمة ترافعت بين ذهول الحاضرين من أهل المدينة... من كانت تحب رفعت صادق أم حسن المغربي الذي راحت تستبسل في الدفاع عنه بحرارة لفتت نظر الحاضرين من قضاة ومحامين وحضور، وكان كيانها كله ينتفض وهي تستشهد بأحكام القرآن والقانون وتشيد بعدول المتهم عن انكار تهمته واعترافه في شجاعة بالجرم الذي بدر منه في حمأة الانفعال والشجار، وبمحاولاته المتكررة لارضاء أهل القتيل واستشهدت بالشهود الذين حضروا مجالس التحكيم من شيوخ وغيرهم، وأهابت بعدالة المحكمة مراعاة ذلك في حكمهم خاصة وأنه فعل كل ما في وسعه ارضاء لأهل القتيل حتى أنه حقق لهم رغبتهم ورغبته من قبلهم في الاعتراف، وأشادت بتوبته النصوح الواضحة من نبل موقفه، واسترسلت في دفاعها واستبسلت ثم ختمت دفاعها بأن طلبت من المحكمة الأخذ بأسباب الرأفة والظروف المخففة في موقف المتهم جملة وتفصيلا.

وأجلت القضية للحكم بعد أسابيع قليلة زارت خلالها لبنى حسن المغربي في سجنه عدة زيارات أثلجت صدره وأزالت ما كان بينهما من جفوة وقربت بين نفسيهما وروحيهما، وراحت لبنى تبث فيه الأمل وتدفع عنه اليأس وقالت إن قضيتها واحدة ظالم ومظلوم هو ظالم بقتله رفعت ومظلوم من أهل القتيل برفض صادق توبته، وهي ظالمة هي ورفعت بالتقائهما دون سابق ارتباط رسمي ومظلومة بمقتل رفعت وتشويه سمعتها بالاشاعات التي أطلقها النمامون في المدينة.. فثلاثتهم القاتل والقتيل وهي ظالمون ومظلومون، وراحت لبنى تدفع وتحث حسن المغربي على اكمال تعليمه وهو في فترة تنفيذ الحكم الذي بشرته بأنه سيكون مخففا وأن رفاقه من المتعلمين في السجن يمكن أن يعاونوه وسيشجعه المسئولون في السجن فذلك اتجاه يشجعونه في الآونة الأخيرة، ووعدته بأن تقف دائما الى جواره وأن تنصره ظالما ومظلوما كما هو موقفها منه الآن، سمع حسن المغربي ذلك منها ففاضت عيناه بالدموع التي بللت خديه فنبت عليهما ورد كأنه الربيع في حر الصيف وقيظ الظهيرة، وفي نهاية زيارة المحامية لبنى انصرفت بعد أن صافحته فانجاب عنه الهم، واذا كان قد أوصد بينهما باب فقد فتحت أبواب الأمل والرجاء والحياة الدنيا بل والآخرة.

وانجابت عن النفس الهموم والكدر وزال الوجوم، ولم يعد حسن المغربي بعد أن من الله عليه برضائه وبحب لبنى له يبالي بأي شكل من أشكال العقاب يقضي به قضاة المحكمة حتى لو كان الاعدام وترك كل شيء للقضاء والقدر.

- ١٢ -

صدر حكم المحكمة التي أخذت بكل أسباب التخفيف فاعتبرت الجناية جناية ضرب أفضى الى موت، كما أخذت في الاعتبار توبة حسن المغربي النصوح التي جعلته يعترف بالجريمة بعد أن سبق وبرأته محكمة من قبل.

صدر الحكم بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

وزارت لبنى حسن في السجن قبل ترحيله وهونت عليه الأمر وقالت إنه يستطيع أن يستأنف تعليمه ويحصل بالجد والاجتهاد على الثانوية نظام ثلاث سنوات يمكن بعدها أن يلتحق بالجامعة وبذلك فتحت أمامه طريق الأمل في المستقبل كما قالت ان ادارة السجن ستشجعه اذا رأت منه حسن السلوك، بل أن حسن سلوكه يشفع له في الافراج

عنه بعد قضاء نصف مدة العقوبة.

وبكى حسن المغربي ليس بسبب قسوة الحياة في السجن ولكنه بكى من الحيرة أمام موقف لبنى التي كانت تكرهه ثم انقلبت عطوفة، بل داخله احساس بأنها صارت تحبه مثلما يحبها، لكنه أشفق من أن يفصح عن ظنه لها خشية أن يكون مخطئا في ظنه، وتحاشى النظر اليها وهي تصافحه منصرفة ووعدته أن تسأل عنه أهله دائما وتتتبع سير أحواله اذ أنه لا يسمح بالزيارة لغير الأهل. وذرف حسن دمعة فرت من عينيه رغماً عنه وراح يتابع لبنى وهي تسير خارجة من عنده على مهل، وحانت منها التفاتة سريعة نحوه رأى فيها الحب يفيض فهتف باسمها «لبنى» والتفتت اليه بعينين باسمتين ود لو ينهل منهما أو يعب من الحب الفياض فيهما حتى يمتلىء القلب اذا ارتوى، ولكن ها هي تختفي ويبدأ القلب في معاناة النوى.

رضي حسن المغربي بحكم القضاء واستمر في سجنه يصلي ويطلب من الله المغفرة لكن أهله ظلوا على اعتقادهم أن اعترافه بعد سابق حصوله على البراءة حماقة ما بعدها حماقة، كما ظل اهل رفعت صادق الذي قتل غير راضين عن الحكم بالسجن ثلاث سنوات على قاتل ابنهم والذي يمكن أن ينتهي بعد عام ونصف اذا أحسن المغربي سلوكه داخل

السجن، وصمموا أن يقتصوا من حسن بأنفسهم فور الافراج عنه، وقالوا إنهم لا يرضون بحكم القضاء لاستناده الى القانون الوضعي وأنهم لا يرضون الا حكم الاسلام، وقال لهم شيخ المسجد:

- ان في ذلك مغالطة كبرى وكرر قوله إن القصاص يكون بيد أولي الأمر اذا كان القتل عمدا، والقضاء قال قولته بأن جناية حسن المغربي ضرب أفضى الى موت وأنه لم يعد أمامهم سوى الدية أو العفو، بل ان حقهم قد يسقط بقضاء حسن مدة العقوبة، وأما ما يتعلق بالقانون فعلى الجميع أن يلتزم به ويمكن أن يطالبوا بتغييره بالطرق المشروعة، مع الالتزام به حتى يتم تغييره بالطرق المشروعة.

ويجادل أهل رفعت صادق والمتشددين لهم بأن من يرى خطأ عليه أن يغيره بالقوة أو اللسان أو القلب على قدر المستطاع.

فيرد شيخ المسجد:

- «من سن سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة».

كل ذلك وحسن المغربي في سجنه يستذكر دروسه

بعزيمة لا تعرف الكلل، واذا مل استذكار دروسه ففي قراءة القرآن ملاذه ومتعته التي لا تعرف الملل، ومع نهاية العام يحصل على الثانوية العامة بمجموع كبير وتسمح له ادارة السجن بمواصلة تعليمه بالانتساب لكلية الحقوق كما أراد منذ شاهد لبنى وهي تترافع عنه بحرارة نابعة من قوة الحجة وحضور البديهة وقوة الأسانيد القانونية، ولا تخلو من عاطفة أضرمت نار حبها في قلبه حتى صار متأججا وتساءل في نفسه متى يفتح باب السجن كي يراها ويملأ عينيه من محياها ويقدم لها الشبكة التي ترضاها، وقال لنفسه إنه لم يظلم رفعت صادق بقدر ما ظلمها، فرفعت ان لم يقتله كان سيقتله هو، أما هي فقد أسهم مع الناس في الصاق وصمة بها سببها الافتراءات التي قيلت عنها بعد مقتل رفعت صادق من أنها حملت منه سفاحا، وبذلك قتلها الناس وهي حية فقد أعرض عنها الخطّاب وألحق بها الناس عارا وراحوا يلاحقونها بالافتراءات جهارا نهارا، فلا أقل من أن يكشف عن كل هذه الافتراءات النقاب ويرفع عنها الظلم الذي كان بطريق غير مباشر طرفا فيه، تساءل كيف يكون ذلك وتضرع الى الله أن يهديه، وشاء الله أن يهديه فسأل أمه في احدى الزيارات بالسجن أن تقوم بزيارة لبيت لبنى وتحاول أن تجس نبضها وأمها تجاه ابنها حسن بعد أن تاب وأناب.

وذهبت أمه الى بيت لبنى وعرضت الأمر، ولم تنطق لبنى بشيء، فقط افتر ثغرها عن ابتسامة وأشرق وجهها بالبشر والسعادة، رأت أم لبنى ذلك من ابنتها فزال عنها الحرج وانفلتت عقدة لسانها منذ وقعت الحادثة المشئومة وعلت الفرحة وجهها الذي كان دائماً عبوساً وقالت مرحبة بأم حسن:

ـ أهلاً يا ست أم حسن ومرحبا بك.

لكن أم حسن قالت في اصرار على الحصول على رد صريح:

ـ ماذا أقول لحسن

تهلل وجه لبنى بالسعادة وأجابتها:

ـ قولي له كل خير.. كل ما تتمنينه فالله نفسه غفور رحيم وستكون لبنى ان شاء الله في مقدمة المهنئين له على باب السجن عند خروجه.

همت أم حسن بالخروج وهي تقول:

ـ ليلتها ستكون الفرحة فرحتين.. نزوركم في المساء ومعنا الشبكة والدبلتين وأطرقت لبنى في حياء وعجب من أمر القسمة والنصيب وكيف يتحول الخصم الى حبيب،

وكيف أن من تتعلق آماله بالله لا يخيب أبدا رجاه، فها هو الأمر الذي أثار في البلد كل هذه الضجة قد بلغ منتهاه، وها هو قلبها الذي أبحر من شاطئ رفعت صادق قد وجد مرفأه ومرساه عند غريمه حسن المغربي، الذي جمعها به الحب في وضح النهار على غير انتظار ولا عجب... انها ارادة الله.

(تمت)

إكرام الميّت

همّ الموت

- ١ -

استيقظ كل من في البيت في موعدهم للذهاب الى أعمالهم. ودبت الحركة في كل أرجائه حتى غطت على السكون الذي كان قد ساد المكان. الشيخ عبد الباري رب البيت وحده الذي ظل ساكنا في مكانه جالسا على أريكته منذ استيقاظه بعد صلاة الفجر، أشعل سيجارة وأخـذ نفسين وأسند رأسه الى يده والسيجارة مشتعلة بين اصبعيه السبابة والوسطى وبقي ساكنا حتى استيقظ كل من في البيت. يمرون عليه ويحيونه بتحية الصباح وهو لا يرد فيظنون أن أمرا ما يشغله فيمضون لشأنهم دون توجس، فصمته وسكونه قد يسببان الوساوس ولكن يبددها اشتعال السيجارة بين اصبعيه.

ظلت الحالة هكذا لحظات حتى هتف أصغر أبنائه آخر

العنقود «حسن» في دهشة ساذجة أيعقل أن تحرق السيجارة جلد أصابع أبي وهو لا يشعر! وهنا تنبه كل من بالبيت وتجمعوا حول الشيخ عبد الباري يقلبون فيه وينادونه دون جدوى، واندفعت زوجة الشيخ عبد الباري بسرعة تجاه دولاب الصيدلية الصغيرة الملحقة بالبيت وهي تصرخ:

- نادوا جارنا الدكتور زكريا ليعطيه حقنة كورامين.

وعلى الفور اندفع أكثر من أخ تجاه بيت الدكتور زكريا ملبين رجاء أمهم.

وجاء الدكتور زكريا وكثيرا ما كان يجيء لاعطاء الشيخ عبد الباري حقنة كورامين، وكان الشيخ عبد الباري مريضا بالقلب ويعالج منذ مدة، ورغم تحذيرات الأطباء لا يكف عن التدخين دافعا القلق عن نفسه وعمن حوله بعبارة «الأعمار بيد الله».

سارع الدكتور زكريا باعطاء الشيخ عبد الباري حقنة الكورامين لكنها لم تسر في عروقه التي ازرقت فسحب المحقن وقد امتقع وجهه فعاد يجس نبضه لحظات ثم سحب الغطاء على رأس الشيخ عبد الباري وهو يقول لمن حوله «البقاء لله»، وعلا الصراخ في البيت وسرعان ما تشكلت دائرة من النسوة يلطمن الخدود ويشققن الجيوب، بينما

انشغل الرجال عنهن بتدبير الأمور، بدأ الابن الكبير «أحمد عبد الباري» يتحدث بلهجة الوجيه كما هو معروف عنه، فهو أكبر الاخوة وأكثر من استمتع بالجاه والعز الذي عاش فيه أبناء الشيخ عبد الباري. تزوج بثلاث نساء وكان يبعثر المال عليهن وعلى نفسه وملذاته يمينا ويسارا حتى لم يختلف اثنان من المحيطين بالأسرة على أنه السفه بعينه ورغم ذلك كان من الطبيعي أن يكون أول المتحدثين في هذا الموقف الذي يظل فيه الكبير كبيرا رغم كل شيء. قال بلهجة لم تخل من اشارات العظمة رغم جهامة الموقف لأخيه حسن:

- اذهب يا حسن ومعك بطاقة المرحوم العائلية الى مكتب الصحة لعمل تصريح الدفن ولا تَنْسَ أن تأخذ معك روشتات الأطباء الذين عالجوه.

وسارع حسن لتلبية الأمر على الفور فأخذ الروشتات وبطاقة أبيه العائلية، وقصد من فوره الى مكتب الصحة القريب من مدرسته الثانوية التي يدرس في السنة النهائية بها للمرة الثالثة ويحلم أن يلتحق بالجامعة ليتخرج موظفا مرموقا مثل أخيه «سعد» الذي يعمل في أسوان موظفا بوزارة السد العالي.. والآن لا يدري ماذا تخبئ له الأيام بعد موت أبيه وما قد يتمخض عنه.

بعد خروج حسن التفت أحمد عبد الباري الى أخيه محمد الذي كان يساعد أباه في ادارة التجارة - وقال بلهجة لا تخلو من عظمة:

- اقصد الى مكتب البرق وابعث ببرقية الى أخيك سعد في أسوان تخبره بالأمر وعجل بذلك فمشواره طويل، قل له احضر ولو على طائرة كي يحضر الدفن فاكرام الميت دفنه.

وصدع محمد للأمر وخرج قاصدا مكتب البرق.

لكن أحمد لحق به وقال:

- أرسل أيضا ببرقيات لأخيك علي وأطراف كل عائلتنا في السنبلاوين وأخبرهم بأن تشييع الجنازة ظهر اليوم.

ورد محمد:

- هل يترك علي جمع محصول القطن؟

ونهره أحمد فقال محمد:

- حاضر يا سي أحمد.

وواصل محمد طريقه الى مكتب البرق وعاد أحمد الى الداخل ليصدر أمراً بالتوقف عن التعديد واللطم وزجر المعددة بل وطردها شر طردة، ثم رفع سماعة التليفون واتصل بمحل الفراشة وقال له:

ـ أنا أحمد عبد الباري تعرفني بجوارك في الدرب الأحمر. الشيخ عبد الباري فات لك طولة العمر.. أقم السرادق أمام البيت.. وأنت تعرف البيت.. أريد سرادقا لم يقم مثله لأحد والسلام عليكم.

ووضع أحمد السماعة ثم عاد فرفعها واتصل بالحانوتي وأمره بأن يحضر لاجراء الغسل وتكفين الجثمان بعد أن أعطاه العنوان ووضع سماعة التليفون وهنا اقتربت منه أمه المفجوعة وقالت:

ـ ألا يجمل بنا أن نؤجل الدفن الى الغد حتى حضور أخيك سعد من أسوان.

شوح بيده في حسم وقال:

ـ اكرام الميت دفنه يا أمي، ومن أدراك لعله يحضر في طائرة ويحضر الجنازة.

وصرخت أمه:

ـ طائرة.. لا فليأت على مهله في القطار.. المهم سلامته.

قال أحمد:

ـ كل الناس اليوم تركب الطائرة وهو في وزارة

كبيرة.. سيأتي على الطائرة ومعه وفد من زملائه الكبار.

واقتنعت الأم ومضت لحال سبيلها تجلس وسط ابنتيها وجاراتها يبكين في صمت فرضه عليهن أحد ابنها الذي لم يفرض عليه أحد شيئا منذ ولد، ولا هو التزم بقيد طيلة حياته.. ينفق ويبذر طيلة حياته على الزيجات والأصحاب حتى صدق عليه القول «هاتي يا قدره وأدي يا مدره».

- ٢ -

وصلت البرقية الى مكتب أخيهم سعد في أسوان، لكنه ليس في مكتبه.. انه في الموقع والموقع كبير.. وتساءل العاملون في مكتبه.. ترى في أي ناحية من أنحاء الموقع هو، وهداهم تفكيرهم الى أن يخرج كل واحد منهم في اتجاه وعلى من يصادفه أن يخبره على الفور.. فخطبه جلل ومصابه أليم ومشواره حتى القاهرة طويل يستنفذ الدمع الغزير. وصادفه في أحد أجزاء الموقع موظف من مكتبه حديث السن طبيعته جبلت على التردد والمبالغة والتهويل قال:

- الأمر خطير يا بك.

قال سعد في قلق:

- .. في أي أجزاء الموقع.

قال الموظف الصغير :

ـ ليس هنا وانما في القاهرة.

تساءل سعد في صوت خافت :

ـ انقلاب.

قال الموظف في سذاجة :

ـ يا ليت.

صرخ سعد :

ـ هات ما عندك بسرعة.

قال الموظف:

ـ البقاء لله يا بك. توفي والدك.

خرجت من فمه شهقة أتبعها بكلمة «أبي» ثم استعاد رباطة جأشه وراح يتلقى مواساة العاملين في الموقع، وحين أدرك أن الأمر قد أخذ من الوقت أكثر مما يتحمل ركب السيارة الجيب الى جوار السائق وعاد من فوره الى مكتبه وأوكل العمل الى من يليه في المسئولية. ثم أجرى اتصالات بمكتب خط الطيران الداخلي آملا أن يجد طائرة متوجهة الى القاهرة في نفس اليوم دون جدوى، فهرع من فوره الى

محطة القطار على أمل اللحاق بالقطار السريع لكنه لم يلحق به، وفي النهاية لم يجد بدا من ركوب القطار القشاش فركب على مضض وأسند رأسه الى النافذة وأغمض عينيه محاولا أن ينام.. أن يهرب من الأحزان وذكريات آخر مرة رأى فيها أباه منذ أسبوعين حين كان في أجازة بالقاهرة، كان أبوه منذ انتقل للعيش في القاهرة يلح عليهم في بناء مقابر للاسرة بها، وجادله أحمد أكبر أبنائه بقوله «لم.. وللأسرة مقابر في السنبلاوين» لكنه قال: «أريد أن أكون بجواركم حتى تسهل زيارتي عليكم»، واستجاب الجميع لرغبته وتم بناء المقابر على وجه السرعة كرغبته، وكرغبته اصطحبه أبناؤه بعد تمام البناء لزيارة المقبرة وتجمع حوله الشحاذون من الصبية والنساء قائلين: «أعطنا.. رحمة ونور على الميت» وضحك لظنهم أنه يزور ميتا وأعطاهم وهو يردد «أولى بالميت أن يترحم على نفسه عله لا يجد من يترحم عليه».

وبسرعة ردد كل الأبنا: «ألف سلامة لك يا أبي.. أبقاك الله لنا».

وهنا استيقظ سعد وسأل جاره في القطار:

ـ أين نحن الآن؟

قال جاره وهو ينحت احدى حبات الدوم :

ـ فتنا منذ قليل محطة اسنا ومن قبلها دراوادفو وناصر الموطن الجديد للقرى التي سيغرقها السد ، وها نحن مقبلون على نجع حمادي. والأقصر حيث آثار الماضي السحيق وشرد سعد في تأملاته فحدث نفسه قائلا «ها هو أبوك قد صار في خبر كان.. و«كان» دلالة الماضي بل قطعة منه فانظر ماذا تفعل الأيام بالانسان وكيف أصبحت الأيام فاعلا بعد أن كانت بالنسبة للبشر مفعولا به. وتذكر الرجل المجذوب اليافع المفتول العضلات الذي تعود أن يراه في صباه عاريا لا يستره سوى سروال يجول به في الشوارع مرددا «بلي الدهر ونحن ما بلينا». ضحك من غرور الانسان وعرف لماذا يقولون إن الغرور احدى صفات الشيطان بل ان الشيطان نفسه يدعي الغرور. ونفخ في ضيق فقال جاره :

ـ أفي عجلة أنت؟

هز رأسه دلالة الايجاب ثم قال:

ـ وأي عجلة.

قال الجار :

ـ أفي عجلة وتركب القشاش؟

ـ لم أجد طائرة ولم ألحق بالقطار السريع .

ـ الأمر خطير اذا ؟

ـ مات أبي صباح اليوم .

ـ البقاء لله .. كلنا لها .. أرح نفسك لن تلحق الجنازة .. اصبر .

ـ هذا القطار القشاش كفيل باستنفاذ كل الصبر .

قال الجار كالمستئذن :

ـ أحسن شيء هو النوم .

وأسند رأسه للنافذة وكذلك فعل سعد يرجو أن يكون النوم ترياقا لأحزانه ومعاناة الصبر في القطار كمعاناته ، فمشاق الحياة والعمل كلاهما يتطلب الصبر ، والنوم قرين الموت وقال : « هئنذا أسلم نفسي لك يا ربي فان شئت اقبضها وان شئت اعف عنها .

وراح سعد في نوم متقطع يصحو كلما توقفت عجلات القطار العجوز ليسأل : « أين نحن الآن » ثم يقول في نفسه : « هذا القطار بطيء بما يكفي لتقطيع أوصالي وأطراف الوطن مع أن المفروض أن يصل بين أجزائه حتى لا تتقطع نياط القلب » . ويعض سعد على نواجزه في غيظ ثم يستسلم للنوم المتقطع القلق .

- ٣ -

عاد حسن من مكتب الصحة كما نعب. الروشتات بيده وكذلك بطاقة أبيه العائلية وقال: «إن الطبيب أبى اعطاءه تصريحا بدفن أبيه اعتمادا على الروشتات التي ألقى نظرة عليها رغم أن الرجل كان مريضا منذ مدة طويلة وطاعنا في السن. قال: لا بد من توقيع كشف طبي.. اسبقني وسألحق بك».

وانتظروا وقتا طويلا حتى حضر طبيب الصحة ومعه بطانة من الموظفين اعتاد اصحابها معه في مثل هذه الظروف، ربما ليحيط نفسه بهالة من العظمة التي أصبحت من سمة الروتين في هذا العصر وتوأما لرتابته، وربما كان يصطحبهم كداع من دواعي الأمان له اذا ما كان في الأمر شيء.

وارتدى نظارته الطبية وتفحص الروشتات العديدة من أطباء عديدين وسمع ملابسات وفاته في الصباح الباكر ومحاولة الدكتور زكريا انقاذه بعد فوات الأوان، وتفحص الذراع التي حقن فيها بحقنة الكورامين فرأى زرقة دعته الى الريبة لأن الحقنة لم تسر في عروقه حين أخذها لأنه كان قد مات. رفع حاجبيه وهو يخلع نظارته وقد رسم امارات الجد على جبهته ومط شفتيه، ثم التفت الى من حوله دون مبالاة وقال متسائلا:

- تريدون تصريحا بالدفن؟

قالوا في رجاء: نعم يا دكتور.
قال: أريد ألفي جنيه.
شهق الموجودون في وقت واحد وقالوا: لم؟
قال: أشك في أن الوفاة جنائية.
قالوا في دهشة وسذاجة:

- كيف يا دكتور.. لقد مات في بيته وسط أولاده؟

قال في حنكة أضفت على كلامه طابع العلم والريبة:

- انظروا الى الأزرق في يده.

قاطعه الدكتور زكريا:

ـ هذا لأني حاولت انقاذه بحقنة كورامين دون أن أفطن الى فوات الأوان.

لكن طبيب الصحة قال دون مبالاة:

ـ الظاهر أنها حالة تسمم.

قال الدكتور زكريا في قرف:

ـ الرجل كان طيلة عمره مسالما.. وتاريخه المرضي تشهد به الروشتات. وقد مات وسط أولاده وحاولت انقاذه أمام أبنائه وليس ثمة داع للريبة الا اذا...

قاطعه طبيب الصحة في عنجهية وهو يكتب تقريره:

ـ الا اذا جاء تشريح الجثة بغير ذلك.

وصرخ كل المحيطين بطبيب الصحة:

ـ حرام عليك يا دكتور.. لا داع للتشريح والعبث بالرجل بعد موته بعد أن عبث به المرض والأطباء كثيرا في حياته.

هنا كرر الرجل في عناد وتبجح:

ـ ألفي جنيه دون زيادة أو نقصان.

وأسقط في يدهم وراحوا يتبادلون النظرات لا يدرون ماذا يفعلون.

قال الدكتور زكريا:

- أنبوب حقنة الكورامين موجود والمحقن موجود وأنا موجود وأهله موجودون ومن قبل كل ذلك الله موجود فاكتب ما شئت من تقارير.

ولم يلتفت طبيب الصحة لكلامه وانما التفت الى من حوله من بطانته وهو يكتب «نأمر بتشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة».

صرخت أرملة الشيخ عبد الباري في أكبر أبنائها أحمد:

- أعطه ما يريد.. أبوك ليس حمل بهدلة.

وأوشك أحمد واخوته على الاستجابة لرجاء أمهم ولكن الدكتور زكريا صرخ فيهم مشيرا الى طبيب الصحة:

- هذا الطبيب أفاق يبتز مشاعركم تجاه جثمان أبيكم واذا ذعنتم سينجو أبوكم من التشريح ويدفن ولكنكم لن تنجوا من نظرات الريبة في عيون الناس من حولكم خاصة وقد أعلن طبيب الصحة على الملأ من حولكم أنه يشك في أن الوفاة جنائية استنادا الى تلك الزرقة التي في أحد عروق

يده.. لا تدفعوا.. لا تجلبوا العار على أنفسكم.

صرخت أرملة الشيخ عبد الباري:

ـالعار أن نسمح بتشريح جثمانه، وأن نبخل بألفي جنيه.. ليأخذ الألفي جنيه ويذهب في داهية.

ومع الدكتور زكريا العفن المتجسد في شخص طبيب الصحة وشراهته للمال وراح يرمقه بنظرة احتقار ثم فجأة تفتق ذهنه عن موقف جسور فقال:

ـ اذا دفعتم له.. سأبلغ المسئولين بما حدث وسأطلب تشريح الجثة وبذلك لن يتغير الموقف وتكون الألفي جنيه قد راحت مجانا.

هنا هتف طبيب الصحة في تظاهر بالبراءة أمام عائلة الشيخ عبد الباري:

ـ هو الذي يريد التشريح الآن.. ليس أنا كما ترون.

وهاج الجميع وماج وساد لدى الجميع احساس بأنهم متهمون وأن الألفي جنيه كفالة للافراج عنهم وصاحوا في رجاء لطبيب الصحة:

ـ خذ ما شئت أنت والدكتور زكريا ولكن لا داعي لاثارة ريبة أو ضجيج.

قال الدكتور زكريا:

ـ لو أن أخاكم الأستاذ سعد موجود لاتخذ نفس موقفي فهو رجل جاد لا يقبل الخطأ ولا الرشوة والابتزاز، حتى ولو كان بدعوى انقاذ جثمان أبيكم من التشريح وأنتم بوقوفكم موقف المستضعف من هذا الطبيب الأفاق المرتشي، انما تدعون من حولكم من الناس الى الارتياب فيكم.. ارتفعوا فوق الموقف وانئوا بأنفسكم عن الشبهات وليفصل الطب في أمر أبيكم. وليفصل القانون ووزارة الصحة ونقابة الأطباء في أمر هذا المرتشي الجبان الأفاق المتبجح. وأنا سأجري اتصالاتي في رئاسة الطب الشرعي بالوزارة فورا.

- ٤ -

بعد آذان العصر دق تليفون من أخيهم علي الذي يعيش في السنبلاوين ويقوم على أمر زراعة أرضهم هناك. استفسر عن سبب تأخر وصول الجثمان وقال انه أقام سرادقا للعزاء في السنبلاوين وأنه يغص بالناس الذين ينتظرون لتشييع جنازة أبيهم، ورد عليه أحمد بأن هناك مشاكل تتعلق باجراءات الدفن وأن الدفن قد يتأخر الى الغد. ورد علي مستفسرا عن السبب لكن أحمد قال إن التليفون ليست الوسيلة المناسبة للتحدث في مثل هذا الأمر، ولم يفهم علي وصرخ في التليفون حتى كاد أن يصم آذان أخيه «عجلوا.. اكرام الميت دفنه.. والناس في السرادق قلقين.. مصالح الخلق متعطلة».

وهنا فقط تنبه أحمد الى أن أخاه ومن في البلد يتصور

أن الدفن سيكون في السنبلاوين فصرخ فيه قائلا «من قال لك أقم سرادقا في السنبلاوين ومن قال إن الدفن سيكون عندكم في البلد.. الدفن هنا في القاهرة في مقابر مدينة نصر التي بنيناها أخير».

صرخ علي:

- أيعقل يا أحمد أن يدفن أبي في الغربة؟.. لا بد أن يدفن في بلده.

قال أحمد:

- كانت هذه رغبة المرحوم أن يدفن حيث يعيش معظم الأبناء في القاهرة، وكلها أرض مصر وأرض الله. والمشكلة الآن ليست أين يدفن.. وانما المشكلة هي متى سيدفن.

صرخ علي على الطرف الآخر للتليفون:

- كيف.. لا أفهم.. ماذا هناك؟

قال أحمد:

- التليفون لا يصلح للتفاهم في هذا الأمر.

صرخ علي:

ـ كيف.. الفأر يلعب في عبي.. سأحضر حالا.

وضع علي سماعة التليفون في عصبية وراح يحاول تخمين حقيقة الموقف دون جدوى واستأذن من الموجودين في السفر الى القاهرة دون أن يعطي تفسيرا لأسباب سفره فهو نفسه لا يعرف حقيقة الأسباب أو طبيعتها، وسار في ركابه صديقه «الغزولي» سكرتير الجمعية التعاونية الزراعية الذي يرتبط معه بمصالح تتعلق بالأرض وحيازتها والحاصلات الزراعية وتوريدها وكذلك المبيدات وتسلمها، والغزولي خادم أمين له في كل هذه الأمور ولكن ليس دون مقابل، فحين غيّر حيازة الأرض ووضع اسم علي فيها بدلا من اسم أبيه الذي بقيت له ملكية الأرض قبض الغزولي الثمن والتزم مع علي بكتمان الأمر وذلك منذ سنوات عديدة سبقت موت الشيخ عبد الباري حتى يتمكن علي بذلك من وضع اخوته أمام الأمر الواقع عند وفاة أبيهم الذي ظن أن بموته ستطمس معالم الحقيقة، فلا أحد وفق اعتقاده يستطيع الطعن في عقد الايجار الذي باسم علي خاصة أن الرجل قد مات والأختام التي ختمت بها الأوراق حقيقية وان كانت قد سرقت وتم الختم بها منذ سنوات عديدة وصار الأمر حقيقة دامغة بالتقادم، وهو يعتقد الآن أن على الاخوة أن يسلموا بالأمر الواقع ويرضخوا لحيازة أخيهم للأرض مقابل

الايجار السنوي القديم الذي لا يغني ولا يسمن من جوع، لكن أحدا لا يختلف على أن عليا سيقف أمام اخوته وعلى وجهه امارات النذالة والوضاعة، ولن يستطيع أن يرفع رأسه في مواجهتهم الا اذا تخطى مرحلة النذالة والوضاعة الى مرحلة التبجح، واذا وصل الى هذه الدرجة في مواجهة جميع اخوته فان الأمر سيختلف أمام أخيه سعد الموظف الكبير الذي يستطيع باتصالاته أن يضعه كل يوم في مآزق ومواقف لا تخلو من الحرج واراقة ماء الوجه وربما سببت له من المشاكل أكثر مما يحتمل، لكنه قال لنفسه ان حيازة الأرض صارت لي بمساعدة الغزولي منذ سنين عدة في الخفاء، وعما قليل ينكشف المستور وها هو العقل يدور والنفس تمور وسعد بركان لا يهدأ بل سيظل يثور، ولكني لن أعبأ بشيء فليس بعد الأرض شيء سيخلف الاخوة... نعم.. ولكن لا ضير فمصارين البطن تتشاجر.

لكنه عاد يتأمل موقفه أمـام أخـوتـه ووجـده مـزريـا فتملكته رغبة في التقيؤ، وكان ينظر من نافذة السيارة فأفرغ ما في جوفه وقد دمعت عيناه وخطر له أن أباه ربما مات غير راض عنه، راح يبحث عن سبب لعدم رضاء أبيه عنه كما تخيل فلم يجد، قال لنفسه: «ربما اكتشف أبي فعلتي قبل موته.. سامحني يا أبي فأنا لا أعرف شيئا من أمر الدنيا

غير الأرض وزراعتها، ولا أنا أحببت شيئا مثلما أحببت الأرض، واخوتي كل له ما يضمن له حياة كريمة له ولأولاده، فأحمد الكبير كان له طيلة عمره كل شيء يملكه أبي أرضا كان أو تجارة، فقد عاش عز أبيه وتزوج ثلاث مرات وحسابه في البنك متخم ولا شك بالمدخرات ولا أحد يدري كم هي، وحتى اذا كانت قد تبددت فعليه أن يتحمل عاقبة سفهه وعيشه عيشة الوجهاء، أما سعد فهو موظف كبير ذو جاه وسلطان وعلاقات تذلل له الصعب وتزيح من طريق مستقبله كل ما يمكن أن يكون من عقبات، ومحمد لا شك قد نهب تجارة أبيه وان لم يكن قد فعل فانه لا شك أعد العدة لذلك اليوم، فقد تزوج من قاهرية ابنة لأحد كبار التجار ولا بد تعلم منهم ما يكفي لجعله يأكل مال النبي. وحسن سيتم هذا العام تعليمه الثانوي وسيلتحق باحدى الكليات ليتخرج منها بعد سنوات قليلة، ساعتها سيبذل سعد مساعيه لالحاقه باحدى الوظائف الكبيرة.

أما البنتان فمتزوجتان مستورتان مع ابنين لاثنين من كبار تجار القاهرة ويشغلان وظيفتين ويسكنان القاهرة العامرة، فهل تطمع أي من الاثنتين فيما هو أحسن من ذلك ومع ذلك لا بأس من زيارتها بين الحين والآخر حاملا معه

ما تيسر من خيرات الريف: بعض قشدة وزبدة.. بعض من الطيور واللحوم التي تشرفني أمامهم في زيارتي، واذا وجد من تسول له نفسه من الاخوة أن يطمع فيما استحوذت عليه من أرض أو ماشية فأنا له بالمرصاد ولن أسمح بغير ما أردت وما كان لي حتى ولو وقعت الطامة الكبرى، وسأسفر لهم عن وجه كالح حتى ولو تفصد جبيني بالعرق المالح، ولكن ماذا لو انكشف المستور وثبت التزوير.. كيف سيكون الموقف بعد كل هذا الزمن منذ سرقة الخاتم من الجيب.. أيعقل ذلك...

ولكن توقع من جانبهم كل عجيب، فساعتها لن تدري ماذا تفعل وسيكون يوما أسود من قرن الخروب، ولا تحلم أن تزول الخلافات بعد هذا اليوم، ولتوقن أن شمس عائلة الشيخ عبد الباري بعد عمره الحافل وتاريخه المجيد ستصير الى غروب خاصة اذا دبت الخلافات بين أفرادها وتمكنت منهم كمرض عضال، ستتمزق أوصال العائلة وتعصف الخلافات بكل ما كان للعائلة في الماضي من شأو كبير. لكنه في النهاية قرر الثبات على موقفه وأحل لنفسه اغتصاب الأرض مهما بدا له من أن الأمر جد خطير، وأزاح عن ذهنه المثل الداعي الى التراجع بدعوى أن «الجري نصف الجدعنة» وقال لنفسه ان الأرض قد صارت لي ولو بتزوير

الحيازة ملكا فعليا فخيرات الأرض لمن يزرعها، ناهيك عن نصيبي من الميراث، ذلك اذا استطاع اخوتي أن يثبتوا أحقيتهم في الوراثة بالأوراق التي آلت بموجبها الأرض الى أبيهم فهي ليست مسجلة لأبيهم وانما بالوراثة المعنعنة.

أرهقه التفكير القلق في شأن الحيازة المزورة حتى ألهاه عن الموضوع الأساسي وهو وفاة أبيه والمشكلة الغامضة بخصوص دفنه، وكذلك شغله هذا التفكير عن عادة اعتادها كلما كان في طريقه الى القاهرة وهي شراء الجريدة والتظاهر بقراءتها رغم أنه لا يعرف القراءة ويعتمد على بصمته في الأوراق الرسمية، خاصة بعد أن اكتشف سهولة سرقة الأختام كما فعل مع أبيه. ومع نسمات الليل بدأت السيارة تقترب من مشارف القاهرة وبدأ الركاب يغلقون نوافذ السيارة لتفادي رائحة ودخان عادم السيارات المتوالية على الطريق وتبادلوا التهنئة بسلامة الوصول، وقال راكب لآخر «رغم عادم السيارات وضجيج المدينة فالقاهرة أم الدنيا، يكفي أن فيها أم هاشم وسيدنا الحسين وهتف الراكب الجالس الى جوار علي والغزولي «مدد يا أم هاشم.. مدد يا حسين». وقرأ الجميع الفاتحة لهما، ثم خطر للغزولي أن يذكر علي بأبيه فقال: «والفاتحة أن يرحم الله الشيخ عبد الباري ويجعل مثواه الجنة كرامة لأم هاشم والحسين».

وقرآ الفاتحة ثم طلبا الى السائق توصيلهم الى الدرب الأحمر وقالا له ستأخذ ما تريد فقال السائق «نحن في الخدمة» وحجز السائق دوره في الموقف ومضى لتوصيلهم الى الدرب الأحمر.

- ٥ -

انضم علي والغزولي الى جمع الاخوة والجيران الملتفين حول جثمان الشيخ عبد الباري المسجى كما هو على سريره لليوم الثاني، وها هي رائحة الموت تتصاعد من الجثمان حتى زكمت أنوف الواقفين والدكتور زكريا لا زال يجري اتصالاته في مصلحة الطب الشرعي ووزارة الصحة والنيابة، يدور في هذه الحلقة المفرغة، والصيف حار بحيث لا تتحمله الجثة، والمغسل يصرخ «عجلوا يا جماعة فالصيف حار واكرام الميت دفنه.. وها نحن واقفون لليوم الثاني دون تقدم» وعاتبهم قائلا: «ما ضر لو كنتم راضيتم الطبيب وكان الأمر انتهى منذ أمس».

قال أحد الواقفين:

- انه طلب غير معقول.. ألفي جنيه.

أجاب المغسل.

- ليس خسارة في والدكم.. وقد سمعت أنه ترك خيرا كثيرا.

قاطعه أحمد:

- المشكلة ليست في دفع المبلغ ولكن كما قال الدكتور زكريا سيترك ذلك شبهة حولنا نحن أولاده.. ولن نستطيع التخلص من هذه الشبهة طوال العمر.

واستأذن المغسل في الذهاب لبعض شأنه وقال «اتصلوا بي اذا جد في الأمر جديد» وانصرف لكنه بعد أن دلف من الباب أطل برأسه ثانية وقال:

- ليتكم تشغلون مروحة أو اثنين في الحجرة وكلما أكثرتم الروائح يكون ذلك أفضل فالرائحة كما ترون.

وانصرف بينما الواقفون يلتفتون لبعضهم البعض في اشمئزاز من صراحة المغسل واستنكار أن تصدر رائحة عفنة عن أبيهم، ولكنها الحقيقة فمنذ قليل كان بعضهم يرفع جلبابه بحركة لا ارادية ويغطي أنفه، وهمّ ساعتها أخوهم الأصغر حسن بتضميخ جثمان أبيه بعطر جميل فواح كأريج

الورود وأجهش بالبكاء وقال:

- أيصير هذا حال أبي ونحن وقوف مشلولي الأيدي مسلوبي الارادة عاجزين كالنسوة؟

ربت أحمد على كتف أخيه حسن:

- وماذا بيدنا أن نفعل يا حسن.؟ هذا الله وهذه حكمته.

قال حسن في مقارنة أخجلت أحمد ومحمد وعلي:

- لو كان سعد قد وصل لكان الأمر قد حسم وانتهى كل شيء.. ها هو السرادق أمام البيت منذ يومين والشيخ يقرأ والناس ملت الانتظار حتى فتر حماسهم للحضور ولهم حق فان مصالحهم تتعطل.

وأمسك علي بالفرصة وقال:

- كذلك هناك سرادق أقمته في البلد والناس متجمعون هناك.

صرخ فيه أحمد:

- ومن قال لك أقم سرادقا في السنبلاوين، ان المرحوم أوصى بدفنه هنا.. وبنينا مقابر لنا هنا فعلا.. أهو موت وخراب ديار؟

قال علي في غضب:

ـ وغير معقول أيضا ان يأتي أهل البلد جميعا هنا لتشييع الجنازة وتقديم العزاء.

قال أحمد:

ـ فليأت من يريد الحضور وليذهب من لا يريد في داهية.

قال علي في غضب:

ـ وفر كلامك ولا داعي للفضائح أمام الناس، أبوك كانت روحه في السنبلاوين، كان دائما يقول «السنبلاوين عام ١٩٣٠ كانت أجمل وأنظف من قاهرة اليوم».

عقّب أحمد:

ـ هذا رأيه فيها عام ١٩٣٠ فما رأيه فيها اليوم؟

وخيم صمت توالى فيه حضور الجيران بمزيد من المراوح الكهربائية بالاضافة الى عشرات من زجاجات العطر وهم يقولون «الشيخ عبد الباري عاش حياة نظيفة وترك سيرة عطرة ولا يجوز أن يصدر عن جثمانه الا الروائح العطرة»، وراحوا يرشون الجثمان بالعطور حتى سادت الروائح الجميلة أرجاء المكان، وأثناء ذلك تسلل محمد الى دكان تجارة أبيه

الذي كان يديره هو وانشغل بافراغ خزينة النقود في حقيبة نقلها الى بيته القريب بأعلى الدكان، وأحضر سيارة نقل وأخلى ارفف الدكان من البضاعة ونقلها في السيارة الى مخزن لا يعلم به الا هو ثم عاد كأن شيئا لم يكن، وكان حسن يتابعه من فوق سطح بيتهم وأحاط بكل ذلك علما لكنه رغم صغر سنه تكتم الأمر حتى يفـرغـوا مـن مـواراة جثمان أبيهم التراب، فهو لا يريد اثارة ضجة في البيت أمام الناس ولا يريد مضاعفة حزن أمه وأخواتـه بـالتعجيـل بـوقـت الحساب.. الأمر الذي يضيف الى ما يشعرون به من عذاب واكتئاب.

- ٦ -

استيقظ سعد من نومه المتقطع على منظر الأطفال الذين يسبحون عرايا في النيل كما ولدتهم أمهاتهم وكما سيخرجون من هذه الدنيا يوما ما، وكذلك شده منظر أحراج النخيل عند البدرشين وخطر له أبوه وكأنه نخلة شاهقة الارتفاع أثمرت أبناء فيهم الصالح والطالح.. أحزنه أن يكون بين أخوته من هو طالح لأن أباه لم يدخر وسعا في تعليمهم وتأديبهم، ولكن جرى قضاء الله بذلك فخرج علي عن التعليم من البداية واغراه اقران السوء بأن الأرض تغنيه عن التعليم، وانصرف محمد عن التعليم بعد الشهادة الاعدادية الى مساعدة أبيه في التجارة حتى صار مهيمنا عليها تماما لا أحد غيره يعلم عنها شيئا، أما أحمد فاكتفى منذ نعومة أظفاره بالوجاهة وتبذير المال على زيجاته وملذاته ورفاق السوء دون

أن يجد في ذلك ما يكدر صفو أبيه الذي كان قلقا بشأنه هو بالذات لأنه لا يعرف في دنياه شيئا عن التعليم أو التجارة أو زراعة الأرض، فأي مصير ينتظره اليوم بعد وفاة أبيه الذي كان يكفل له كل مطالبه وكان يعز عليه أن يتركه في حاجة؟

لكل ذلك أصر الشيخ عبد الباري على أن يهتم بأمر تعليم سعد حتى يصل الى مركز وظيفي مرموق في وقت قصير وكذلك نقل اقامته الى القاهرة من أجل حسن الصغير بعد أن سافر سعد للعمل في السد العالي. وكان يتابع نتائج حسن بنفسه ويحثه على التفوق حتى لا يخيب كما خاب أخوة له، كان يرى في حسن نسخة أخرى من سعد الذي كان طموحا وثّابا.. مقتصدا في انفاقه بحيث يظهر الى جانبه كم أن اخوته الآخرين مبذرون، دعك سعد عينيه ولفت نظره نخلة واقعة وقال: «لا غرابة أن أرى نخلة سامقة تقع فأبي الشيخ عبد الباري كان نخلة فارعة الطول قوية في مهب الريح ضاربة الجذور في أعماق الأرض ومع ذلك لم ينج من قبضة الموت الذي لا مفر منه، فهذا قضاء الله المبرم وهل من راد لقضائه.

وعند محطة الجيزة نزل من القطار وقد بلغ به الملل من بطء القطار ورغبته العارمة في سرعة الوصول الى الأهل

والدار أن استقل احدى سيارات الأجرة وطلب الى السائق أن يوصله الى الدرب الأحمر من أقصر طريق، ووعد أن يدفع له الأجر الذي يليق، وفي ثوانٍ تحرك عداد السرعة أمام السائق الى منتهاه، ومضت السيارة على الكباري الجديدة في سرعة بددت بعض الذي في نفسه من الحزن وعلامات الضيق.

وعند باب البيت نزل وهرعت أمه لتقبله وبعد أن قبلته على عتبة الباب وربتت على ظهره في حنو قالت:

ـ طول العمر لك يا سعد، من أنجب مثلك لا يموت.

وتوالى استقبال الاخوة له والاخوات وبعض من في السرادق من الرجال وبعض الجارات من العجائز، وأدهشه أن يكون السرادق لا زال مقاما وان النعش الى جانب باب البيت فصرخ فجأة:

ـ ماذا في الأمر؟

وقصوا عليه القصة فازدرد ريقه ورغم ذلك ظلت في حلقه غصة وسأل:

ـ أين الطبيب الآن؟

قالوا: لا ندري فلم نره منذ كان هنا.

سأل: وأين الدكتور زكريا؟

قالوا: يتنقل بين مصلحة الطب الشرعي والنيابة، كان الله في عونه وقف معنا منذ استنجدنا به حتى الآن رغم مصالحه المتوقفة.

وهتف سعد باخوته:

- لا شيء في الأمر.. اذا كان يريد تشريح الجثة لا بأس.

وصرخ فيه أخوه الوجيه أحمد:

- تسمح بتشريح جثمان أبيك يا سعد؟

قال سعد ببساطة:

- وماذا في ذلك.. أليس خيرا من أن تلصق بأبنائه شبهة قتله ويلحق بهم العار ويقال ساعتها عنا أننا أولاد حرام.

غشى الصمت الجميع وأمن أحمد الذي كان يجادل على كلام سعد وقال:

- صدقت يا سعد.. أثمر فيك التعليم، لكن ذلك سيأخذ وقتا واكرام الميت دفنه.

قال سعد :

ـ الوقت الذي مضى دون عمل شيء أضعاف الوقت الذي كان سيستغرقه التشريح والتصريح بدفن الجثة.. هيا بنا.

وهرع الجميع الى مصلحة الطب الشرعي وفي أثناء ذلك اتصل حفار القبر يستعجل الدفن قائلا : « نظفنا الفناء منذ يومين وفتحنا القبر هل نغلقه ثانية؟ كان حسن موجودا فأخبره أن الأمر على وشك الانتهاء، ووضع السماعة وقد خطر له أن ما حدث منذ وفاة أبيه هو الابتلاء الحقيقي ولكنه ليس الابتلاء الوحيد فبعد دفنه ستظهر أشياء واشياء، ستظهر الخلافات التي تسكن نفوس الابناء وخطر له أن وجود أبيه بينهم كان يبدد الخلافات وربما كان حقنا لدماء الأبناء، ولكن هذا هو القضاء، وقد جاء وقت العتاب والحساب بين الأبناء بديهياً وسيتوالى مثل الألف والياء، وأحس حسن بأن الأمان كان في كنف ابيه فخطر له ماذا لو دفن أبوه في ساحة البيت حتى يظلوا يعيشون في كنفه في هدوء ودعة، لكنه أيقن أن ذلك أمر غير معقول ولا مقبول فأيقن أن لا رجاء. لكن الأمل موجود في وجود سعد العاقل الرزين وختم خواطره بأن قال « المكتوب على الجبين ستراه العين ».

- ٧ -

حسم سعد باتصالاته الموقف وحصل على تصريح بالدفن بعد حضور ثلاثة من الأطباء الشرعيين واتخاذهم القرار بعد توقيع الكشف ثانية وكان بينهم الطبيب الذي طلب الألفي جنيه ووجه اليه كبيرهم بعض اللوم ارضاء لأهل الميت وخاصة سعد الذي أثبت أنه الابن الكبير عمليا وان لم يكن ذلك هو ترتيبه في الحقيقة، وخطر لسعد أن البطء في الوصول الى قرار حول التصريح بدفن أبيهم يحاكي بطء عجلات قطار الصعيد وكذلك سير الأوراق في مكتبه وكل المكاتب والتعثر والتخبط في اصدار القرار وخطر له أن السبب في ذلك أننا عالم ثالث مثل هذا القطار الذي كان يركبه، وكانت تتصدره البلاليص والزلع والمقاطف، قطار كل من فيه يغط في النوم ولا سبيل الى ايقاظه الا بمعجزة

أو آية كونية أو هزة أرضية قوية ربما راح ضحيتها كثيرون.

وقبّلته أمه وهي تبكي لأنه استطاع أن يحمي أباه من التشريح،

وتحركت الجنازة المهيبة بعد أن كان الكثيرون قد جاءوا من السنبلاوين ربما فضولا لمعرفة ما في الأمر، وربما لأن أهل الريف لا يتوانون عن أداء الواجب، وعما قليل عند عودتهم الى البلد سينسجون الأساطير حول موت الشيخ عبد الباري وملابسات تأجيل دفنه ولن يفوتهم الاشادة ببطولة سعد الذي لولاه ما تم الدفن حتى يوم القيامة وسيختمون كلامهم بالعبارة التقليدية «العلم نور».

وعندما وصلت الجنازة الى المقابر طلب الحفار مائتي جنيه بالتمام والكمال وأعطاه سعد المبلغ لكنه نحاه جانبا وطلب من اخوته المساهمة معه في مواراة جثمان أبيهم، وعلى الفور حمل كل الاخوة الجثمان وهبطوا به الدرج الى المقبرة حيث غابوا لحظات فكوا فيها رباط الكفن من ناحيتي الرأس والقدمين وأهالو على جانبيه الرمال ووضعوا طوبة تحت رأسه ثم انسحبوا خارجين ووجوههم ناحية أبيهم وظهورهم ناحية باب المقبرة، وعندما أحسوا أنه الفراق

انهلت الدموع من عيونهم وراحوا يدعون له ويقرأون الفاتحة وهم لا يزالون يسكبون الدمع، والتزم الجميع الصمت وبدأوا الانصات لصوت الملقن مخاطبا الميت بينما راح العمال يسدون فوهة القبر بالطوب والجبس والاسمنت، قال الملقن «اذا جاءك الملكان الموكلان بك وسألاك من ربك قل الله ربي والاسلام ديني ومحمد نبيي والكعبة قبلتي».

وانتهى الأمر بعودة الأخوة الى السرادق المقام أمام البيت ومعهم المعزون القادمون من السنبلاوين والأنحاء الأخرى، ولأن العزاء ممتد حتى آخر الليل تدفقت صواني الغداء على البيت والسرادق من البيوت المجاورة كعادة الجيران في مثل هذه المناسبات وهتف أحد أبناء الميت وهو يمد يده قائلا لمن حوله بسم الله يا جماعة قال ﷺ: «الخير في وفي أمتي الى يوم يبعثون».

وامتدت الأيدي الى الطعام على استحياء سرعان ما زال بفعل الجوع الشديد فأتوا على الطعام من الألف الى الياء، وبعد صلاة العشاء بدأت تلاوة القرآن واستمرت حتى منتصف الليل، وانصرف المعزون الى بيوتهم فيما عدا أهل السنبلاوين استضافهم أهل الميت وهم يقولون سيسعنا المكان... حصيرة الصيف واسعة.

التركة

- ١ -

توالى سفر المعزين على مدى نهار اليوم التالي، واجتمع شمل الأسرة على تناول العشاء الذي انتهوا منه دون أن ينفض شملهم، كانوا ينهضون لغسل أيديهم ثم يعودون للجلوس في أماكنهم كأن في نفوسهم جميعا ما يستوجب الكلام والمناقشة، وطال الصمت وانصرفت الأم لبعض شأنها، فتوالت النحنحة والسعال المفتعل وبادر فرج زوج احدى الأختين قائلا:

- لا داع لاضاعة الوقت ولتحسموا كل أموركم فكلما كان ذلك مبكرا كان خيرا. وأمسك سعد بعبارة زوج أخته «ولتحسموا كل أموركم» وقال:

- ما دمت تعلم أنها أمورنا فلتعطنا فرصة لذلك أنت وعديلك.

وانتفض الزوج الآخر صفوت غاضبا وقال وهو يهم بالخروج:

- لك الحق كله فنحن أغراب.

لكن فرج قال في تبجح وهو يجذبه من يده مستبقيا اياه:

- لا غريب الا الشيطان.. نحن زوجا ابنتي المرحوم وحماة حقيهما.

قال سعد في هدوء ورزانة:

- وهل ترى يا فرج ان اخوة زوجتيكما قد أصابها السعار؟ هل عرفت أنا من أكلة حقوق الآخرين؟

قال فرج في خجل:

- العفو يا سعد بك.. ولكن لا ضير من حضورنا.

قال سعد في حسم:

- بدأت بالضير وضيعت رغبة كانت لدينا في حضوركما بادعائك أنكما آأمن على حقوق أختينا منا. وهذا مجلس اخوة وما سيناقش فيه لا ناقة لك فيه ولا جمل.

رد فرج بتبجح:

ـ كيف وفيها حقوق أبنائي؟

رد سعد في صرامة وجد:

ـ لم تصبح بعد حقوق أبنائك هي لم تزل حقوق أمهم.. هل فهمت.. تفضل يا أخ فرج.

وخرج فرج وهم صفوت بالخروج فقال سعد وهو يربت على ظهره:

ـ آسف يا صفوت.. أرغب في استبقائك لأدبك ولكن لا أريد التمييز بين زوجي الأختين. وخرج صفوت مجبور الخاطر بكلمة سعد بينما فرج بالخارج يزمجر ويهدد ويتوعد بما لا يقدر عليه ولا يملكه.

ودار عتاب بين الأختين وأخيهما سعد سفحت فيه دموع، وسعد يحمل قلبا رقيقا رغم مظهره القوي الصلب في الحنايا وبين الضلوع، لذا اعتذر لأختيه بما بدر من زوج احداهما، وطيب خاطرهما وقال مطمئنا:

ـ سيمضي كل شيء في سهولة ويسر فكل شيء واضح لا لبس فيه. التركة سهلة الحصر والقسمة غاية في اليسر. ولنبدأ «بسم الله الرحمن الرحيم»

وقرأ الجميع الفاتحة ثم قال سعد وهو يفتح صندوقاً كان

أبوه يحتفظ فيه بكل مستنداته على مدى عمره وأجرى حصراً للأرض التي يملكها أبوه في البلد، ومن واقع الفواتير التي تركها أبوه عرف أن الدكان عامر بالخير وكذلك خزينة النقود التي حصر أبوهم ما بها ليلة الوفاة وقرأ كل شيء على مسمع من الجميع، فراح كل من علي ومحمد يتململان في جلستيهما وصاح سعد:

- ما بكما

قال محمد:

- الحقيقة يا أخي أن أبانا ترك الدكان رفوفا خالية وكذلك الخزينة خاوية فالتجارة كانت تعاني في الآونة الأخيرة.

صرخ سعد:

- الأوراق التي تركها أبوك ليلة وفاته تقول غير ذلك.. تقول إن الرفوف متروسة والخزينة عامرة ولدي الأرقام بالتحديد ولا داع لـ «س» و«ج» والشرطة والمحاكم وسيشهد عليك أخوك حسن الصغير فقد رأى بعينيه ما فعلت.

- تهددني يا سعد بالشرطة والمحاكم؟

قال سعد:

- أنا لم أهددك بعد.. أنا أحدثك عن الوسائل القانونية.. والقانون لا يغضب أحد منه، أما اذا استمررت في الانكار فان لي وسائل أخرى أعرف بها أين يخبيء العفريت ابنه.. هل تفهم؟.. هل توافق على أن تكون هذه المستندات أساسا للقسمة فيما يتعلق بالتجارة والمبلغ المثبت أنه في خزينة النقود؟ وتدلت أذنا محمد وقال إنه يوافق فمد سعد له يده بالتوقيع على ذلك في ورقة محضر القسمة ثم قال:

- والآن فلننتقل الى موضوع الأرض.

قال علي ملتقطا الخيط من سعد:

- الأرض موضوعها واضح وضوح الشمس هي ملك لنا جميعا ومؤجرة لي منذ ستة عشر عاما من أبينا، وهذه هي صورة الحيازة استخرجتها من الجمعية التعاونية الزراعية من يومين بالصدفة وأنا ملتزم بسداد الايجار القانوني سنويا بعد تقسيم التركة واعطاء كل ذي حق حقه.

صرخ سعد في أخيه علي غاضبا:

- أخذت أهبتك للأمر.. يا لك من فلاح «حويط».. أرني الصورة.

وقدم الصورة لأخيه قائلا:

ـ اذا لم تصدقني.. الغزولي سكرتير الجمعية لا زال بالخارج.

قال سعد:

ـ اذا كنت لا أثق في أخي فلن أثق في الغزولي بطبيعة الحال ولا غيره، ومع ذلك سننظر في موضوع حيازتك للأرض عما قريب، ولننظر الآن في توزيع الارث.

قالت الأختان:

ـ نحن لا نعرف في التجارة ولا الزراعة ونريد حقنا عدا ونقدا.

ولم ير الاخوة مانعا في ذلك وحسبوا حقهما في التجارة «البضاعة والمال» المعروف أنه مفروض أن يكون في الخزينة ثم عرجوا على مناقشة حقهما في الأرض بالمساحة أولا حسب الشرع فانبرت الأختان تقولان:

ـ الشرع كان في الزمن الماضي «اليوم الولد مثل البنت» كما أننا لم نتم تعليمنا وليست لنا وظيفة.

وثار الاخوة جميعا الا سعد قال في هدوء وتؤدة:

ـ ألستما مسلمتين موحدتين مؤمنتين بالقرآن وما فيه؟

قالتا :

- الحمد لله .. ولكن القرآن نزل قبل هذا الزمان .

قال سعد :

- ألا تعملان بما فيه الآن وتؤمنان بأنه لكل زمان ومكان ؟

قالت الأختان :

- بلى ولكن . . .

وتلجلج لسانها ، وفجأة انبرى علي يقول في تبجح :

- اذا مشينا على ما يقال في أيامنا « فالأرض لمن يزرعها » .

واندفع محمد يقول :

- وأنا في هذه الحالة أستطيع أن أجادل فيما لدى سعد من أوراق وأقول إن التجارة شطارة .

وانفجر سعد :

- كفوا عن هذا .. واحد ياخد الأرض وواحد ياخد التجارة والمال ويضيع الباقون .

قال علي :

- انت موظف محترم ماذا تريد أحسن من ذلك

قال سعد :

ـ اذا سلمنا بما تقول بشأني هل يضيع حسن التلميذ الصغير وأحمد الذي لا يجيد مهنة .

صرخ محمد :

ـ أحمد رضي بالوجاهة وعاش عز أبيه وضيع الكثير على زيجاته الثلاث.. وحسن سنراضيه جميعا .

ثار سعد ووقف قائلا :

ـ لا شأن لك بما أنفق في حياة أبيك ومحمد وحسن وأنا لنا حقوق ولا بد أن تصل الحقوق الى كل أصحابها حسب شرع الله والقانون الذي يحكمنا ، اذا كنتم لا تريدون أن نقف أمام بعضنا في المحاكم.

وأحس علي بصلابة موقف أخيه وكذلك محمد والبنتين وأحمد معه على طول الخط فسلم علي بعد أن سلم الجميع بقسمة الله العادلة: ثمن التركة للأم ثم يوزع الباقي على الأبناء للذكر مثل حظ الأنثيين.. وصدق الجميع على القسمة بتوقيعاتهم وأختامهم وبصماتهم كل حسبما تعود .

مكث علي مع اخوته يومين في القاهرة اختفى أثناءها سعد نهاراً بكامله عاد بعدها مثل « جهينة » بالخبر اليقين.

جاء ومعه صورة من حيازة أبيه للأرض وصورة للحيازة التي باسم علي بالاضافة الى صور من بيان وظيفة الغزولي الذي فضح أمر حيازة أخيه المزيفة وعقدة ايجاره للأرض الممهور بختم أبيه بعد سرقته، فقد أثبتت الأوراق أن الغزولي الذي وقع على عقد الايجار والحيازة بوصفه سكرتيراً للجمعية التعاونية الزراعية منذ ستة عشر عاما قد حرر الحيازة وعقد الايجار ووقعهما في تاريخ يسبق تاريخ تعيينه في الجمعية التعاونية بسبعة أيام، وواجه سعد أخاه علي بواقعة التزوير قائلا له وللغزولي:

ـ الكذب ليس لـه رجلين.. وهـددهما بـابلاغ الأمـر للنيابة ان لم يوافقا على اعادة الامور الى نصابها فلم يجدا مناصا من الرضوخ للأمر الواقع وسلما له بما أراد. قال في سره مخاطبا اياهم «لم يكن العفن صادرا عن أبينا حين كنتم ترفعون طاقات جلابيبكم فوق أنوفكم وانما كان صادرا عن المحيطين به بين طبيب مرتش مستغل وابن مزور وآخر سارق وآخرون يريدون غير شريعة الله ولكن في النهاية لا يصح الا الصحيح» وقال بصوت عال مخاطبا اخوته:

ـ ان اكرام الميت ليس في دفنه فقط وانما في الابقاء على وحدة الأسرة من بعده.

واطرق الجميع في صمت خجل.

- ٢ -

لم يفت سعد قبل السفر والعودة الى أسوان أن يزور كل اخوته بنين وبنات في بيوتهم، حاملا معه خيرات الله مثلما كان يفعل أبوه الأمر الذي أكد مركزه بأنه الأخ الكبير قلبا وعقلا وأسعد ذلك أمه ومحا ما في نفس الاخوة من مشاعر غريبة كانت دائما بغيضة اليهم هم أبناء المرحوم الشيخ عبد الباري الذي حبب اليهم الحب وكره اليهم البغضاء، فصفت النفوس وزال الكدر حتى من نفسي كل من فرج وصفوت زوجي أختيهم اللذين أثلج صدريهما أن يسود العدل حياة الاخوة فهبوا لعناق سعد الذي رجح موقفه العادل كفته، ورأى الاخوة في ملامحه وهم يعانقونه تكرارا لصورة أبيهم، كما رأوا في تذكرهم لموقفه الحاسم معهم تكرارا لشخصية أبيهم التي لا تعرف في الحق لومة

لائم، الأمر الذي دعاهم للالتفاف حوله وأهله لزعامة العائلة بعد أبيه، ودعاهم سعد لقضاء يوم في بيت العائلة بالدرب الأحمر، وحثهم على أن يجمع هذا البيت شملهم كل أسبوع، ونبذ الأحقاد والفرقة وفي آخر الليل أشاع جوا من المرح، وبعد أن مضى الجميع الى بيوتهم راح سعد يعد حقيبته، ويأخذ للسفر الى أسوان أهبته، وعندما حانت لحظة الوداع بكت أمه وهي تتلقى على خدها قبلته وتقول:

- لا اله الا الله.

ويكمل سعد:

- محمد رسول الله.

ثم يمضي وقد ساد العائلة شعور عام بالوئام والرضا.